مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

نظرية الإنسان في الفكر الإسلامي المعاصر (إسماعيل راجي الفاروقي أنموذجا)

The theory of Human in Contemporary Islamic Thought (Ismail Raji Al-faruqi As Example)

د. الشريف طاوطاو
taou_cher01@yahoo.fr
جامعة عباس لغرور –خنشلة

تاريخ الإرسال: 17_07_2018 تاريخ القبول: 19_02_2020

الملخـــص:

تعد نظرية الإنسان واحدة من بين الموضوعات والمباحث الأساسية التي حظيت باهتمام المفكرين المعاصرين، ومن بينهم "إسماعيل راجي الفاروقي".

إن "الفاروقي" ينتقد مختلف التصورات الغربية الدينية منها والفلسفية فيما يخص نظرية الإنسان، مبينا مواطن القصور والتهافت التي تعتريها، ومن ثمة، حاول تقديم تصور بديل مستوحى من القرآن الكريم، سواء فيما يخص مفهوم الإنسان وأبعاد شخصيته، أو فيما يخص قيمة الإنسان أو فيما يتعلق بنظرته إلى الحياة الإنسانية، وغيرها من القضايا التي تشكل في مجملها ما يطلق عليه الفاروقي بنظرية الإنسان في القرآن. ذلك هو الموضوع الذي يعالجه هذا المقال.

الكلمات المفتاحية: نظرية الإنسان; الفكر الإسلامي المعاصر; إسماعيل راجي الفاروقي; سؤال الإنسان; القرآن الكريم

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

Abstract:

The theory of Human, is one of the fundamental themes that attracted the interest of thinkers, Raji Al-faruqi is one of these thinkers who contributed heavily to this topic.

Al-faruqi criticized western religious and philosophical thinking regarding the question of human, highlighting the man points of its weakness. He gives an alternative interpretation to this issue based on the Quran on issues such as: the meaning of human, and his character, as well as the importance of human as a central value in the universe.

This article focus on what Al-faruqi called The theory of Human in Quran.

Keywords: theory of Human; Contemporary Islamic Thought; Ismail Raji Al-faruqi; the question of human; the Quran.

المقدمـــة:

يعد موضوع النزعة الإنسانية من بين الموضوعات الأساسية التي شغلت الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر، فقد شكلت هذه النزعة أحد سمات الحداثة الغربية وأحد مكاسبها، حيث جعلت هذه الأخيرة من الإنسان مركزا للكون، ومرجعية للقيم، لدرجة تأليه هذا الإنسان لدى بعض المفكرين. وقد امتد أثر هذا الاتجاه الحداثي إلى الفكر العربي والإسلامي المعاصر الذي تبنى هذه النزعة الإنسانية من خلال الدعوة إلى حقوق الإنسان، والمطالبة بحرية الإنسان المطلقة، والإعلاء من شأنه، والاعتراف بمرجعيته في القيم، ومركزيته في الوجود،... إلخ. وتحت تأثير هذه النزعة دعا البعض إلى نقد الفكر الديني، وإلى الإلحاد، وكأن الإيمان بالله يتعارض مع الإيمان بقيمة الإنسان وكرامته. ولتقريب هذه النزعة من المجال التداولي العربي الإسلامي، فقد حاول أنصار هذا الاتجاه

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

تأصيل هذه النزعة انطلاقا من القرآن الكريم ومن التراث العربي الإسلامي، بعد أن قاموا بعمليات تأويل وانتقاء واجتزاء للنصوص بما يخدم أغراضهم واتجاهاتهم الإيديولوجية.

وفي معترك هذه الاتجاهات، والجدل الذي أثير حول سؤال الإنسان، وبعض القضايا والإشكالات الأخرى التي لها صلة به، يبرز المفكر الإسلامي " إسماعيل راجي الفاروقي"[1] بنظريته عن الإنسان.

إن "نظرية الإنسان" عند "الفاروقي" يمكن معالجتها في سياقين اثنين يشكلان مسار مشروعه الفكري، الأول تفكيكي نقدي، والثاني تركيبي، ففي السياق الأول يقوم الفاروقي بنقد النموذج الحضاري الغربي بأبعاده المختلفة المعرفية والسياسية والأخلاقية والثقافية والدينية...كما يمتد هذا النقد ليشمل الفكر العربي والإسلامي في بعديه التراثي والحداثي، بما يمكن اعتباره نقدا ذاتيا، وأما السياق التركيبي، فيتمثل في مشروعه الفكري الحضاري بما اشتمل عليه من بدائل في مختلف جوانب الفكر والحضارة.

ومن هنا، فإن خطة هذا البحث ومنهجيته تحاولان مواكبة هذا السياق الفكري في بعديه التفكيكي والتركيبي، وذلك بإبراز موقف الفاروقي النقدي من التصورات الغربية للإنسان، كما تمثلتها المذاهب الدينية والفلسفية المختلفة كالبوذية، واليهودية، والمسيحية، والماركسية والليبرالية، وغيرها. فمن خلال هذا النقد يبين لنا الفاروقي القصور الذي يعتري التصورات الغربية للإنسان، من خلال نظرتها الاختزالية للإنسان، وهو ما أفضى إلى زيف النزعة الإنسانية الغربية. وأما مسايرتنا للسياق التركيبي، فيتجلى

[1] – إسماعيل راجي الفاروقي: مفكر فلسطيني، ولد عام 1921، تخصص في الأديان المقارنة، ويعد من أوائل المنظرين لمشروع إسلامية المعرفة، وقد انتخب أول رئيس للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، استشهد برفقة زوجته لمياء الفاروقي ليلة 18 رمضان 1406 هـ الموافق لـ 27 مايو عام 1986م بالولايات المتحدة الأمريكية.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

في عرض نظرية الإنسان عند الفاروقي، والتي تتجلى من خلال نظرية خلق الإنسان، وكذلك نظرية الاستخلاف، فقد قدم من خلال هاتين النظريتين تصوره للإنسان، وقيمته، ومركزه في الوجود، والغاية من وجوده، وهو ما يمكن أن نسميه بـــ "نظرية أصالة الإنسان"، وقد حاول الفاروقي تأصيل نظريته انطلاقا من القرآن الكريم، بما يعطيها طابعا إسلاميا أصيلا متجاوزا للفكر الغربي من جهة، ومتجاوزا، من جهة أخرى، للفكر العربي الحداثي الذي تأثر بالفكر الغربي، وإن حاول تأصيل نظرته إلى الإنسان وتبريرها بالاستناد إلى النص الديني والتراث الإسلامي.

فما هي يا ترى المعالم الأساسية لهذه النظرية؟ وما الذي يميزها عن نظريات الإنسان في الفكر الغربي في منظور الفاروقي؟ وما مدى أهميتها؟ تلك هي الإشكالية المحورية التي يعالجها هذا المقال.

أولا: سؤال الإنسان بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي، ومنزلته في فكر الفاروقي

إن البحث في موضوع الإنسان يكتسي أهمية كبيرة بالنظر إلى المكانة التي يحتلها الإنسان سواء من الناحية الأنطولوجية، إذ يرى فيه بعض الفلاسفة محور الوجود، والعالم الأصغر، أو على مستوى الحضارة، إذ يعتبره مالك بن نبي عنصر أساسي في معادلة بناء الحضارة[1]، ويرى فيه البعض الآخر مفتاح الحضارة، باعتباره الأداة أو الوسيلة لبناء الحضارة، وباعتباره من جهة أخرى، هدفا لها، فهناك علاقة جدلية بينهما، بحيث يمكن القول بأن صلاح الحضارة يتوقف على صلاح الإنسان، والعكس صحيح، فإن صلاح

[1]– الحضارة عند مالك بن نبي = إنسان + تراب + وقت. أنظر: شروط النهضة، مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، 1986، ص45

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

الحضارة يعني صلاح الإنسان، "ومن هنا فإن أول القضايا التي يجب أن تبحث والتي ينبغي أن تكون دائما محور البحث هي قضية الإنسان، فهي القضية الكبرى في هذا الوجود وما عداها من قضايا ليس إلا تفريعات عن هذه القضية الكبرى"[1]، مثل قضايا الأخلاق والمعرفة وغيرها.

لقد أدرك الفكر الغربي هذه الأهمية التي يكتسيها موضوع الإنسان، ومن هنا اتجه نحو دراسة الإنسان من أجل تحديد أبعاده وفهم شخصيته وحل معادلته النفسية والاجتماعية والبيولوجية حتى يتسنى له التعامل معه بإيجابية، ويسهل استثماره وتوظيفه بما يعود بالنفع على المجتمع وعلى الحضارة، باعتبار أن الإنسان عامل فعال في التنمية، ومحور أساسي في معادلة بناء الحضارة، كما قال بحق مالك بن نبي.

ولهذا الغرض نشأت العلوم الإنسانية في الغرب، وهي العلوم التي اتخذت من الإنسان موضوعا لها، وقد تطورت هذه العلوم خلال العصر الحديث بشكل لافت، وهو ما جعل معرفتها بالإنسان تزداد وتتطور بما أدى إلى ازدهار الحضارة الغربية ازدهارا كبيرا، ولو أن هذا الازدهار قد سار في اتجاه واحد هو الاتجاه المادي، وذلك بالنظر إلى التصور المادي للإنسان الذي طغى على الفكر الغربي، وهكذا يمكن القول بأن طبيعة الحضارة ومسارها يتوقفان على تصور الإنسان، بالنظر لما يترتب عن هذا التصور من تعامل مع الإنسان في مختلف المجالات المعرفية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية وغيرها، ومن ثمة، فإن القصور الذي يعتري العلوم الإنسانية الغربية، وهو ما يعبر

[1] – زقزوق، محمود حمدي. الإنسان في التصور الإسلامي، قضايا إسلامية، سلسلة شهرية تصدر عن وزارة الأوقاف بمصر، القاهرة، ع154، 2007، ص 8.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

عنه الفلاسفة والإبستمولوجيين بأزمة العلوم الغربية[1]، قد كان له أثر كبير في أزمة الحضارة الغربية.

وفي مقابل ذلك، فإن البحث في الإنسان على صعيد الفكر الإسلامي لم يحظ بنفس الاهتمام الذي نجده في الفكر الغربي، فلم تظهر في مجالنا التداولي الإسلامي علوما إنسانية أصيلة، و لم تتطور بالشكل الذي سارت عليه في الفكر الغربي، فقد عرف الفكر الإسلامي مبحث الألوهية، كما يظهر في إلهيات الفلاسفة والمتكلمين، وعرف مبحث الوجود أو الأنطولوجيا (الطبيعة وما بعد الطبيعة)، فيما غاب عنه مبحث الإنسان، بحيث لا نجد في التراث الإسلامي مبحثا مستقلا عن الإنسان بالصورة التي نجدها في الفكر الغربي، وهو ما يؤكده حسن حنفي في قوله: "إن الإنسان غائب في تراثنا القديم، أي، الإنسان كمبحث في العقل، أو كمنطقة في الوجود، أو كمحور في الحياة، أو كقطب في الكون، والإنسان المقصود هنا، هو الإنسان من حيث هو إنسان، الإنسان العادي، وليس الإمام أو الرئيس، أو الأمير أو الحاكم، أي الإنسان المتميز المتفرد الذي لا يتكرر في غيره"[2].

إن هذا الوضع يعبر عن مفارقة كبيرة، فقد كان من المفترض أن يحدث العكس، بمعنى، أن يتصدر سؤال الإنسان أولوية البحث في الفكر الإسلامي، بل وأحسن مما هو

[1]– حول هذه الأزمة ينظر: الفاروقي، إسماعيل راجي. صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية، مجلة المسلم المعاصر، ع20، ذو القعدة، ذو الحجة، محرم/أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر1979، ص28 وما بعدها. ومن المفكرين الغربيين الذين تناولوا هذه الأزمة الفيلسوف الألماني "إدموند هوسرل، في كتابه: أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا، ترجمة: إسماعيل المصدق، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2008.

[2]– حنفي، حسن. دراسات إسلامية، بيروت، دار التنوير، ط1، 1982، ص299.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

مطروح في الفكر الغربي حتى، ذلك أن الإسلام بمصدريه الأساسيين (القرآن والسنة)، وهو المرجعية الأساسية للفكر الإسلامي، قد اهتم بالإنسان اهتماما بالغا، يكفي أن نجد في القرآن الكريم سورة تحمل اسمه (سورة الإنسان)، وليس هذا فحسب، فإن "القرآن الكريم يدور حوله، فكل ما في القرآن الكريم إما حديث عن الإنسان أو حديث إلى الإنسان، أو عن شيء يتعلق به بأي شكل من الأشكال"[1]، كالفقه، والأخلاق، والمعرفة،...الخ. وما قيل في شأن الإنسان، سواء فيما يتعلق بقصة خلقه، أو بتكوينه، أو بمصيره، أو بوظيفته، أو بتشريفه وتكريمه، أكبر من أن يحصى في هذا المقام، يقول "عبد الوهاب بوحديبة" منوها بالإنسية الإسلامية: "إن الإسلام يضطلع إذن بالإنسان. ولئن استطاع أن يفعل ذلك، فلأن الله وضعه في محور خليقته. وليس من قبيل المفارقات القول إن مركزية الألوهية تؤسس في الإسلام لمركزية إنسانية أصيلة. ذلك أن الإنسان يتكفل بنفسه ويبني رغم المخاطر تاريخا يظل مسؤولا عنه أمام الله بلا ريب، ولكن وبالخصوص أمام نفسه، وأن الإيمان بالله يقترن بالثقة في الإنسان"[2]، وذلك على خلاف ما يدعيه بعض الحداثيين العرب.

إلى ذلك، يمكن القول بأن القرآن قد حمل نواة مبحث إنساني، ووضع إرهاصات نظرية في الإنسان بما تضمنه من إشارات ومعالم مجملة حينا، ومفصلة أحيانا أخرى، غير أن العلماء والمفكرين المسلمين لم يستثمروا في ذلك، فلم يطوروا هذا البحث، بما يؤدي إلى بناء علوم إنسانية إسلامية، أو تأسيس نظرية إسلامية في الإنسان أو مبحث في

[1]– زقزوق، محمود حمدي. الإنسان في التصور الإسلامي، مرجع سابق، ص5.

[2]– بوحديبة، عبد الوهاب. الإنسان في الإسلام، تونس، دار الجنوب للنشر، 2007، ص ص (109–110).

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

الإنسان، هذا إنما يدل على تقصير منهم في التعامل مع القرآن الكريم بمنهجية معرفية إسلامية*.

صحيح أن علماء ومفكري الإسلام، القدماء منهم والمحدثين، لم يهملوا البحث في الإنسان إهمالا كليا، وكيف يهملوه؟ وقد وجدوا الأرضية مهيأة لذلك في القرآن والسنة، كما أسلفنا الذكر، بحيث نجد لدى المتصوفة هذا الاهتمام من خلال نظريتهم في الإنسان الكامل، كما لا يعدم الاهتمام بالإنسانيات لدى المتكلمين، على نحو ما يظهر في تفكراتهم ونظرياتهم حول أفعال الإنسان. تماما كما نجد ذلك الاهتمام لدى الفقهاء والأصوليين من خلال ما وضعوه من قواعد وأحكام فقهية تتعلق بحقوق وواجبات الإنسان في الشريعة الإسلامية، وما مقاصد الشريعة (حفظ الدين، حفظ النفس، حفظ المال، حفظ النسل، حفظ العقل) إلا شاهد على ذلك. وربما وجدنا الاهتمام نفسه بالإنسان لدى الفلاسفة المشائيين من خلال علوم الحكمة العملية، كما يظهر هذا الاهتمام لدى علماء الاجتماع والإنسانيات على نحو ما يتجلى لدى ابن خلدون مثلا، والذي يعد بحق رائد علم العمران البشري، بما قدمه من أبحاث عن

*– من المهم هنا أن ننوه بجهود المعهد العالمي للفكر الإسلامي الذي حاول أن يسد هذا الخلل وذلك من خلال مشروع إسلامية المعرفة الذي يعد إسماعيل راجي الفاروقي أحد مؤسسيه ومنظريه، وهو ما يتجلى من خلال أعماله الفكرية التي نذكر منها: كتاب العلوم الطبيعية والاجتماعية من وجهة النظر الإسلامية، وأيضا كتاب إسلامية المعرفة، المبادئ العامة ـــ خطة العمل ـــ الإنجازات. ومن المفكرين المسلمين أيضا الذين تصب أعمالهم في هذا الاتجاه، يمكن أن نذكر: أبو القاسم حاج حمد، كما يظهر في كتابه "منهجية القرآن المعرفية. أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية". وكذلك: محمد علي أبو ريان في كتابه:" أسلمة المعرفة. العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة نظر إسلامية"، دون أن ننسى المفكر حسن حنفي الذي شكل هذا الاهتمام بتأسيس مبحث الإنسان، جزءا كبيرا من مشروعه الفكري "التراث والتجديد"...

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

الإنسان في بعده الاجتماعي والحضاري، وغير ذلك من الشواهد كثير، وهذا يعني أن الاهتمام بالإنسان لم يغب عن تراثنا، ولا عن الفكر الإسلامي الحديث على نحو ما يتجلى لدى قادة الفكر الإصلاحي(جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وابن باديس ومحمد إقبال ومالك بن نبي وغيرهم كثير)، غير أنه، وبالرغم من هذا الزخم المعرفي والفكري، إلا أننا لا نجد مبحثا للإنسان قائما ومستقلا بذاته بما يدل على وجود علوم إنسانية إسلامية، وتلك مفارقة كبيرة. كما أن طغيان الطابع التجريدي على الفكر الإسلامي الكلاسيكي، ربما بسبب تأثره الكبير بالعقلانية اليونانية، وكذا الفهم الناقص للدين الإسلامي، كل ذلك قد جعل الاهمام بالإنسان في الدراسات الإسلامية، بالصورة التي أشرنا إليها، أي، في صورة علوم إنسانية إسلامية، أو في صورة مبحث إنساني مستقل، شبه غائب، وهذا إنما يدل على أن المسلمين لم يحسنوا الاستثمار في القرآن الكريم لتأسيس نظرية أصيلة في الإنسان، بما من شأنه أن يساهم في بناء حضارة إسلامية متميزة عن الحضارة الغربية المتأزمة بتأزم إنسانها، نظرا للعلاقة الجدلية بين الإنسان والحضارة[1]. وهذا العجز في إنتاج نموذج معرفي إسلامي يتناغم مع المجال التداولي العربي الإسلامي، هو الذي جعلنا نكتفي بتمثل النموذج المعرفي الغربي المأزوم في مجال علوم الإنسان، وهو ما جعلنا نفشل في تجاوز أزمتنا الحضارية من جهة، ونفشل، من جهة أخرى، في تقديم البديل الحضاري المأمول للنموذج الحضاري الغربي المأزوم، وبذلك قصرنا في أداء واجب الشهادة أو الشهودية الذي كلفنا بها، مصداقا لقوله تعالى:"وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون لرسول عليكم شهيدا" (البقرة: 143)

[1] – فرح موسى. الإنسان والحضارة في القرآن الكريم بين العالمية والعولمة، بيروت، دار الهادي، ط1، 2003، ص09.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

هكذا، وبسبب هذا التقصير، فإن الفكر الإسلامي ترك المجال أمام الفكر الغربي ليضع النظريات تلو الأخرى حول الإنسان، يؤيد بعضها بعضا، بقدر ما يهدم بعضها البعض، بما يخدم أهدافه ومشاريعه السياسية والاقتصادية والمعرفية والحضارية، وبما يتناغم مع مجاله التداولي، وقد تأثر الفكر الإسلامي بهذه النظريات ـــ مع الأسف ـــ وسعى في إثبات صحتها وتصديقها رغم ما تنطوي عليه من أخطاء وقصور، يؤكد ذلك دحض هذه النظريات لبعضها البعض، فقد جاءت نظرية التحليل النفسي عند "فرويد" مثلا، لتدحض التصورات السابقة عن الإنسان وحياته النفسية، ثم ظهرت نظريات أخرى ترفض هذه النظرية وتدحضها، واعتبرت نظرية التطور لداروين عند ظهورها ثورة وفتحا علميا في مجال علوم الإنسان، ثم تعالت الأصوات من داخل الفكر الغربي تنقد وتنقض هذه النظرية بما حملته من تصورات عن الإنسان، وإذا كانت النزعة الإنسانية في الفكر الغربي قد أعلت من شأن الإنسان إلى درجة تأليهه، كما جاء في كتاب لوك فيري "الإنسان المؤله أو معنى الحياة"، فإن أصواتا أخرى تعالت من داخل هذا الفكر نفسه رافضة هذه النزعة بدعوى أنها ميتافيزيقا كما فعل هيدغر في رسالته "ضد النزعة الإنسانية"، أو بدعوى أنها إيديولوجيا، كما قال لوي ألتوسير، بل إن منهم من تجرأ على إعلان موت الإنسان على نحو ما فعل ميشال فوكو في كتابه "الكلمات والأشياء".

لكن، وبرغم هذا التضارب والتخبط، فقد ظل المسلمون يسيرون خلف الفكر الغربي، يهللون لكل نظرية جديدة ويدافعون عنها، كما يهللون لكل نظرية تنقضها وتنسخها على نحو ما يفعل الفكر الغربي، وربما أكثر، حيث اتخذ بعضهم من هذه النظريات معتقدا دينيا له لا يشوبه ظن أو تخمين (على نحو ما نجده مثلا لدى "شبلي شميل" في إيمانه بنظرية التطور)، ولم يلتفت هؤلاء إلى القرآن بما حمله من تصور عن الإنسان، ولم يطوروا البحث فيه، واكتفوا بترديد الشعارات، واستثمار نصوصه في تأييد

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

النظريات الغربية أو دحضها، فقد حاول البعض إيجاد أصول قرآنية لنظريات "فرويد" و"داروين" و"ماركس" و"نتشه" وغيرها من النظريات حول الإنسان، مؤكدين إما سبق القرآن في هذا المجال بما يدل على صحة هذا الدين، ومن ثمة، عدم الحاجة إلى العلم الغربي، وإما إثبات صحة العلم الغربي وعدم تعارضه مع الدين، بما يدل على عدم الحاجة إلى الدين، طالما أن العلم يغنينا عنه، متجاهلين بذلك القصور الذي يعتري العلوم والفلسفات الغربية في تصورها للإنسان، وما نجم عنها من نزعات إنسانية تدعي احترام الإنسان والرفع من شأنه واعتباره مركز الوجود وغاية الحضارة، غير أن الواقع يكشف زيف هذه النزعات، إذ هي تكرس في الواقع، عن قصد أو عن غير قصد، استغلال الإنسان واستلابه، ومن ثمة، فهي تنزع منه إنسانيته، وذلك بتحويله إلى مجرد أداة ووسيلة لأهداف أخرى في نموذج حضاري يجعل شعاره في التنمية:" النمو لأجل النمو"، هذا فضلا عما يكتنف هذه النزعات الإنسانية الغربية من تحيز وايديولوجيات عرقية وكولونيالية.

وهكذا، فإن "قراءة صحيحة للواقع الإسلامي، والحضارة العالمية اليوم تدل دلالة واضحة على أن عالم المسلمين انتهى اليوم لأن يكون عالم أهداف وقيم وشعارات تعوزه الوسائل التي توفرها العلوم الإنسانية والمادية معا (علوم ومعارف العقل) بينما تضل الحضارة العالمية، تفقد غايات الحياة وحكمتها، لتصبح حضارة وسائل جعلت من الإنسان نفسه وسيلة محرومة من الأهداف"[1]، وهذا يعني أن أية نظرية عن الإنسان تروم وضع تصور منطقي عن الإنسان يكفل له توازنه، وكرامته، ومركزيته الحقيقية في الكون، بما يضمن له تحقيق إنسانيته، ينبغي لها أن تنهض على معطيات العلم المستمدة

[1] – حسنة، عمر عبيد. مقدمة كتاب: بن عاشور، محمد الفاضل. روح الحضارة الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط4، 2005، ص4.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

من مدارك العقل ومعطيات الوحي السماوي الصحيح حول الإنسان، "وتميز الحضارة الإسلامية في عصر النبوة والخلافة الراشدة أنها استطاعت حل المعادلة الصعبة، والموازنة بين معارف الوحي، ومدارك العقل في تشكيل إنسانها المكلف، للقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني، المكرم بالإنجاز الحضاري، ذلك أنها اعتبرت أن حمل الأمانة تشريف وتكليف"[1].

وفي خضم هذه الأزمة التي يعاني منها الفكر الغربي والفكر الإسلامي على السواء، يبرز "إسماعيل راجي الفاروقي" بفكره الإسلامي الأصيل الذي ينهل من معارف الوحي، دون أن يغفل عن مدارك العقل ممثلة في العلوم الحديثة، محاولا إحياء روح الحضارة الإسلامية ومنهجها وجوهرها ألا وهو التوحيد بكافة أبعاده وامتداداته المعرفية والاجتماعية والحضارية والإنسانية وغيرها، ففي ضوء هذا المبدأ يصيغ الفاروقي نظريته عن الإنسان، حيث يقول: "يؤكد التوحيد أن الله خلق الإنسان في أحسن صورة لكي يعبده ويقدس له. وهذا يعني أن وجود الإنسان على الأرض غايته في مجمله طاعة الله وتنفيذ أوامره. ويؤكد التوحيد كذلك أن هذه الغاية تكمن في كون الإنسان خليفة الله في الأرض. ويشير القرآن أن الله قد حمل الإنسان أمانته، وهي أمانة لم تستطع حملها السماوات والأرض فتقاعسن عنها في رعب، وهذا الائتمان الإلهي هو تنفيذ الجزء الأخلاقي من الإرادة الإلهية، والتي تتطلب طبيعتها أن تتحقق الإرادة في حرية، والإنسان هو المخلوق الوحيد القادر على فعل ذلك. وحيث تتحقق الإرادة الإلهية بحكم القانون الطبيعي، لا يكون التحقق عند ذلك أخلاقيا، بل جوهريا أو نفعيا. والإنسان هو وحده

[1]– المرجع نفسه، ص4.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

القادر على تحقيق الإرادة الإلهية، مع احتمال أن يفعل أو لا يفعل ذلك على الإطلاق أو أن يفعل العكس تماما، أو أي شيء بين الاثنين"[1].

لقد أدرك الفاروقي الأهمية التي يكتسيها الإنسان بوصفه "خليفة الله في الأرض"، فهو "محور الحضارة، ووسيلتها، وهدفها ومعيارها، في الوقت نفسه"[2]، هو محورها، لأن الحضارة لا وجود لها ولا معنى لها بدونه، وهو وسيلتها، من حيث أن كل إنتاج حضاري يتوقف وجوده على نشاط الإنسان العضلي والعقلي والروحي، وهو هدفها، من حيث أن كل إنتاج حضاري إنما وجد لإشباع حاجات الإنسان وتحقيق سعادته ويسره، وهو معيارها، لأن تقدم الحضارات وانحطاطها، إنما يقاس "بمدى قدرتها على تحقيق إنسانية الإنسان، وتنمية مواهبه، وإطلاق ملكاته، ورعاية قابلياته، وتحقيق وعيه بذاته، وانسجامه مع الكون والحياة، والارتقاء به ليحسن القيام بدوره في البناء الحضاري الذي يكرم الإنسان ويكرم به"[3]. كما أن الفاروقي أدرك قصور التصور الغربي للإنسان، وأدرك بالمثل الخلل الذي يميز الفكر الإسلامي في هذا المجال، والذي يتجلى في غياب نظرية أصيلة عن الإنسان، كما أشرنا آنفا، ومن هنا سعى إلى تجاوز هذا الخلل وهذه الأزمة، وذلك بتقديم نظرية أصيلة عن الإنسان مستمدة من القرآن الكريم بالأساس، وقوامها مبدأ التوحيد الذي هو جوهر الإسلام وحضارته، وفي ذلك يقول: "وإنسانية

[1]– الفاروقي، إسماعيل راجي، التوحيد. مضامينه على الفكر والحياة، ترجمة: السيد عمر مكتبة المصطفى الإلكترونية، 2010، ص140.

[2]– حسنة، عمر عبيد. روح الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص1.

[3]– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

التوحيد وحدها هي الأصيلة الخالصة. فهي وحدها تحترم الإنسان بوصفه إنسانا ومخلوقا، دون تأليه أو تحقير. وهي وحدها تحدد قيمة الإنسان بما يزينه من فضائل"[1].

ولمعرفة الخيوط التي تنسج بناء هذه النظرية، وتحدد مضامينها، سوف نتطرق أولا إلى موقف الفاروقي النقدي من التصورات الغربية للإنسان، وما انبنى عليها من نزعات إنسانية، يصفها الفاروقي بالزائفة، وهو ما يمثل الجانب التفكيكي في نظريته، ثم نتعرض بعد ذلك إلى التصور البديل للإنسان في نظره، وهو الذي يمثل الجانب التركيبي الأصيل والإبداعي في هذه النظرية.

ثانيا: أهم التصورات الغربية للإنسان وموقف الفاروقي النقدي منها

إن ما يميز الرؤية الفكرية الغربية للإنسان هو أنها رؤية اختزالية يشوبها القصور، بحيث لم تستطع تقديم تصور شامل عن الإنسان، يحيط بجميع أبعاده بما يحفظ له توازنه وتكامله، ويحفظ له قيمته ومكانته ومركزه في الوجود، وذلك على الرغم من الأبحاث العلمية والتصورات الفلسفية والدينية التي حاولت الإحاطة بماهية الإنسان، ويمكن القول بأن ما يغلب على هذه التصورات هو تركيزها على البعد المادي للإنسان دون سواه، ومرد ذلك إلى الرؤية الكونية المادية التي تحكم النموذج المعرفي الغربي، فهذه الرؤية تعتبر الكون في جوهره مادي التكوين والأصل، فليس فيه أي عنصر روحي أو غيبي، بحيث ينحل إلى مجموعة من العناصر الكيميائية من هيدروجين وأوكسجين وغيرها، والإنسان جزء من هذا الكون، وبالتالي، فإن أصله مادي، وتكوينه مادي، بحيث ينحل إلى نفس العناصر الكيميائية التي ينحل إليها أي جسم مادي في هذا الكون، ومن ثمة، فإن مصيره هو مصير أي عنصر مادي آخر،

[1] – الفاروقي، إسماعيل راجي. الفاروقي، لوس لمياء. أطلس الحضارة الإسلامية، الرياض، مكتبة العبيكان بالاشتراك مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، د.ت، ص 142.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

وهو الانحلال والفناء، وأن نفس القوانين الميكانيكية التي تسري على المادة تسري عليه تماما[1]. ويترتب على هذه المادية، أن هدف الإنسان في هذه الحياة هو إشباع حاجاته المادية ليس إلا، وأن سعادته تتوقف على إشباع لذاته الحسية إشباعا كليا، وأن التفكير في وجود حياة بعد الموت، وربط مصير الإنسان بعد الموت بما يقوم به من أفعال في الحياة الدنيا، هو ضرب من الخيال والتفكير السلبي الذي ينغص على الإنسان حياته، ويفسد عليه سعيه للاستمتاع باللذة والسعادة المادية العاجلة، ومن ثمة، فالإنسان مطالب بأن يكد ويسعى من أجل إشباع لذاته، ولذاته الحسية فحسب.

ففي سياق هذا التصور الاختزالي للإنسان، تشكلت وتطورت النزعة الإنسانية الغربية، والتي تدعي الاعتراف بقيمة الإنسان والإعلاء من شأنه، إذ تعتبره مركز الوجود، وغايته، ومقياس الأشياء جميعا[2]، غير أن اختبار هذه النزعة، وذلك بوضعها على محك واقع الحضارة الغربية، يظهر زيف هذه النزعة وبطلانها، فبشهادة الفكر الغربي ذاته، فإن إنسان هذه الحضارة قد فقد إنسانيته في ظل نموذج غربي في التنمية مبدأه: "النمو لأجل النمو"، وغايته الربح والمنفعة، يدل على ذلك ما يعاني منه هذا الإنسان من شتى ضروب الاغتراب والاستغلال التي أفقدته إنسانيته، وقد أفاض الماركسيون في إبراز مظاهر هذا الاغتراب الذي أوعزوه إلى طبيعة النظام الرأسمالي، بقدر ما أفاض الرأسماليون في إبرازه محملين الماركسية مسؤولية ذلك، وهكذا غدا الإنسان في النموذج الحضاري

[1]– حول هذه الرؤية الكونية المادية، ينظر: المسيري، عبد الوهاب: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دمشق، دار الفكر، ط1، 2002، ص15 وما بعدها.

[2]– حول مفهوم النزعة الإنسانية، ينظر: أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثاني، تر. خليل أحمد خليل، عويدات، بيروت ــ باريس، ط2، 2001، ص 566 وما بعدها. وكذلك: علي شريعتي: الإسلام ومدارس الغرب، دار الأمير، بيروت، د.ت، ص 57.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

الغربي مجرد وسيلة، وأضحت النزعة الإنسانية هناك مجرد شعار بلا مضمون، ولعل مقولة "موت الإنسان"[1] التي نادى بها أحد فلاسفة الغرب (ميشال فوكو) لها دلالتها في هذا الخصوص. وهكذا يتهافت شعار النزعة الإنسانية الذي تتباهى به الحداثة الغربية[2]، ويتغنى به أنصارها ودعاتها من الحداثيين العرب والمسلمين الذين اتخذوا من هذه النزعة حجة لهم في الدعوة للانخراط في الحداثة الغربية.

لقد أدرك "الفاروقي" زيف وتهافت النزعات الإنسانية الغربية بمختلف اتجاهاتها الدينية والفلسفية، فثمة، كما يقول: "بون شاسع بين إنسانية الإسلام [...] وغيرها من الإنسانيات"[3]، ذلك لأن النزعات الإنسانية الغربية تتراوح بين تأليه الإنسان، وبين إهدار إنسانيته. ومن هنا راح ينتقد هذه التصورات فاضحا زيفها ومغالطاتها. فما هي أهم هذه التصورات التي انتقدها الفاروقي؟ وما هي أهم مآخذه عليها؟

1 ــ نقد التصور البوذي للإنسان: إن نظرة البوذية إلى الإنسان يشوبها التشاؤم و اليأس، فهي ترى بأن "الحياة شر، والوجود شر"، ومن ثمة، فإن "واجب الإنسان الوحيد هو أن يسعى جهده للتخلص من ذلك الوجود بضبط النفس وبالجهد العقلي"[4].

---

[1]– فوكو، ميشال. الكلمات والأشياء، ترجمة: مطاع صفدي وآخرون، بيروت، مركز الإنماء القومي، 1989/ 1990، ص312.

[2]– حول هذا الموضوع، ينظر: الدواي، عبد الرزاق: موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، بيروت، دار الطليعة، ط1، 1992، ص 128 وغيرها. وكذلك: الشريف طوطاو، الإنسان في فلسفة روجيه غارودي، أطروحة دكتوراه، نوقشت بجامعة منتوري، قسنطينة، 2010 (غير منشورة).

[3]– الفاروقي: أطلس الحضارة الإسلامية، مصدر سابق، ص 141.

[4]– الفاروقي: نظرية الإنسان في القرآن الكريم، مجلة التوحيد، إيران، السنة الثانية، ع 94، السنة 1404هـ/ 1984م، ص ص (471 ــ 472). وينظر أيضا للمؤلف نفسه: أطلس الحضارة الإسلامية، ص 142.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

إن حياة الإنسان في مذهب بوذا "لا يوجد فيها شيء غير التعب والشقاء، وكل نقطة مشرقة في حياته هي سراب تسبب له متاعب وآلام كثيرة، ومن هنا كان جهد "بوذا" كله منصبا على تخفيف متاعب وآلام البشرية رغم اعتقاده بأن هذه المتاعب والآلام لا يمكن القضاء عليها كليا، وبأن الكمال المطلوب يكمن في موت جسم الإنسان. وفي تلك الحالة فقطـــ حسب اعتقاد البوذيين ـــ لا يكون هناك ألم وتعب. وللوصول إلى هذه الحالة (طبقا لهذه العقيدة) فلابد من تحمل الآلام، والابتعاد عن مسرح الحياة"[1].

ومن خلال هذا الموقف يتضح لنا بأن نظرة البوذية إلى الحياة الإنسانية هي نظرة صوفية مغرقة في الزهد والرهبنة ما يجعل منها موقفا سلبيا من الحياة، يفضي بالإنسان إلى اعتزال الحياة والاستقالة منها، وعدم بدل الجهد فيها. والبوذية تقسم المجتمع إلى طوائف متفاوتة، والإنسان ينتمي بالضرورة إلى الطائفة التي ولد فيها، ولا يمكنه أن ينتقل إلى طائفة أخرى، إلا عقب الموت حيث تؤمن البوذية بتناسخ الأرواح، ومن ثمة، فإن الجهد الأخلاقي لا فائدة منه لصاحبه ما دام حيا في هذه الحياة. ومن هنا يتوجه "الفاروقي" بالنقد لهذه العقيدة التي تعتبر نظرتها إلى الحياة الإنسانية مخالفة لنظرة الدين الإسلامي إليها.

إن أكبر نقص في مذهب بوذا، حسب الفاروقي، يتمثل في تأكيده على بؤس وشقاء الإنسان، وكأن حياة الإنسان والخلقة ما هما إلى بؤس وشقاء، ولذلك يدعو هذا المذهب إلى تحمل الآلام وترك العمل، وهو بهذا يجعل هذا من أتباعه أناسا متخلفين عن أحداث التاريخ، ويجعل أي جهد في مسير الثقافة والحضارة أمرا عبثا[2]. وطبقا لمذهب

[1] – الفاروقي: نظرية الإنسان في القرآن الكريم، ص 488.
[2] – نفسه، ص 489.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

بوذا، فإن وحياة الإنسان تعتبر عديمة الجدوى، ليس فقط بالنسبة إلى نفسه، بل وللآخرين أيضا، طالما أن هذا الإنسان لا يبالي بالآخرين، إذ همه في الحياة إبعاد الأذى والشقاء عن نفسه فقط، وهذا ما يعيبه الفاروقي على هذا المذهب، فالبوذية، كما يقول، لم تستطع أن تبني عمرانا أو أن تأتي بثقافة وحضارة، فهي حركة شخصية تطمع فقط إلى تهدئة أعصاب من تبعها، أي الحياة في هدوء وسكينة، وسعادة سلبية[1]، وهو ما يجعل منها حركة متعارضة مع الإسلام كما يفهمه الفاروقي، حيث يعد مبدأ الجماعة والأمة أحد مبادئ التوحيد الذي هو جوهر الإسلام.

وواضح من هذا النقد أن الفاروقي يرفض النظرة التشاؤمية للحياة، والتي تؤثر في الإنسان تأثيرا سلبيا، بحيث تدفعه إلى العزلة والاستقالة من الحياة، والكسل والتراخي عن العمل والتأثير في الأشياء بغية المساهمة في بناء الحضارة، وهو ما يدعو إليه الإسلام، الذي يشكل المرجعية الأساسية لنظرية الإنسان عند الفاروقي، مثلما سيأتي بيان ذلك لاحقا.

2 ــ نقد التصور اليهودي للإنسان

تتجلى النزعة الإنسانية في اليهودية (المحرفة) من خلال قولهم بأن اليهود هم شعب الله المختار، بهذا المعنى، فإن اليهودي يتمتع بمكانة أسمى من غيره، كيف لا؟ وقد فضله الله واصطفاه دون سائر البشر.

وينتقد الفاروقي هذه العقيدة، معتبرا إياها أسوأ المذاهب على الإطلاق، بالنظر لما تتميز به من عنصرية وعصبية مقيتة، حيث تدعي بأن "اليهود حتى وإن عصوا أوامر الله وارتكبوا أنواع الخطايا واتبعوا سائر الآلهة (حسب تعبير نبيهم hoseah)، فإنهم يبقون أبناء أعزة عند الله، وأن الله قد فضلهم على سائر أفراد البشر (بصورة إلزامية)[2]. وباسم

[1] – نفسه، ص 472.

[2] – نفسه، ص 488.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

هذه العقيدة المحرفة، ارتكب اليهود أشنع الجرائم في حق الإنسانية في كل من فلسطين ولبنان، وغيرهما من بلاد العالم، فأي إنسية هذه التي تبيح لإنسان ما أن يقتل غيره ويسلبه أرضه باسم الرب، وأي إله هذا الذي يعطي لشعب ما الحق في قتل الآخرين وتشريدهم، وفي ارتكاب المعاصي دون أن يفقدهم ذلك شرف العزة والقرب منه؟

3 ــ نقد التصور المسيحي للإنسان

وينتقد الفاروقي بالمثل التصور المسيحي للإنسان وللحياة الإنسانية، بالنظر إلى التشابه الكبير بينه وبين التصور البوذي السالف الذكر، فالمسيحية (المحرفة) تعتبر هي الأخرى الحياة شقاء وألم، ولكنها تختلف عن البوذية من حيث أنها ترد ذلك إلى ذنوب الإنسان وخطاياه ومعاصيه، وهي تعتبر هذه الحياة الشقية أمرا حتميا مقدرا على الإنسان بالنظر إلى خطيئة آدم التي ورثها عنه بنو الإنسان جميعا، وهي ترى بأن وجود الذنب ضروري في حياة الإنسان، وإلا فلا معنى للخلاص، و الله يعرف الذنوب التي سيرتكبها الإنسان الذي يريد أن يخلقه، أي أن الخطأ والانحراف والذنوب الذاتية تلوث الإنسان قبل أن يولد[1].

وهكذا، يبدو الإنسان في التصور المسيحي كائن بلا شأن، كما يقول الفاروقي، إنه ذلك الإنسان الخطاء المذنب، الذي لا مفر له من الذنب، كما أنه لا يستطيع أن يخلص نفسه بنفسه من هذا الذنب، ومن ثمة، من التهلكة، ليس فقط في الحياة الدنيا بل وفي الحياة الأخرى التي تؤمن المسيحية بوجودها (على خلاف البوذية)، وبذلك، فإن المسيحية، كما يقول الفاروقي، قد "نزلت بقدر الإنسان من خلال "الخطيئة الأصلية" وأعلنته "مخلوقا هابطا" أو "كتلة خاطئة""[2]. غير أن هذه الصورة عن الإنسان سرعان ما

[1] – الفاروقي: نظرية الإنسان في القرآن الكريم، ص 489.

[2] – الفاروقي: أطلس الحضارة الإسلامية، ص142.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

تتغير وتتبدل في العقيدة المسيحية، فهذا المخلوق الحقير البائس سرعان ما يتحول إلى كائن ذو شأن كبير لدرجة تأليهه، بحيث تدعي المسيحية (المحرفة) بأن الله لم يتمكن من أن يرى الإنسان يقع في التهلكة، ولذلك فقد ظهر على هيأة إنسان (عيسى عليه السلام) أوجد ملحمة نجاة البشر، لقد أراد الله أن يخلص البشر من سقوط محقق أنزلهم فيه سيدنا آدم عليه السلام، فتجسم ونزل إلى هذه الأرض كي يموت فدى، فكان صلبه وتعذيبه تبرئة للإنسان وخلاص له من الذنب والمعصية[1].

إن أسوأ ما في هذه العقيدة المحرفة، في نظر الفاروقي، هو أنها أصابت الإنسان المسيحي بالغرور المفرط، كيف لا؟ وهو ابن الله، وقد ضحى الله بنفسه من أجله[2]. فهي بذلك قد أعطت لأتباعها ومعتنقيها المبرر للاستعلاء والتجبر والتكبر، واستعمار غيرهم من البشر، فهم طراز أعلى من البشر، طالما أن الله قد حباهم بمحبة لا غنى له عنها فيهم بحسب ما تدعيه عقيدتهم[3]، فأي نزعة إنسانية هذه التي تحتكر محبة الرب لصالح إنسان دون آخر، وتستغل ذلك في احتقار بعض الشعوب واستباحة دمائهم وأموالهم وحقوقهم، وهو ما تجلى في الحركات التبشيرية الاستعمارية. ومن هنا، فإن "الفاروقي" لم يتوان في توجيه انتقاداته لهذه العقيدة مبينا تهافتها وبطلان ما قامت عليه من ادعاءات وأفكار لا تمت إلى الحقيقة بصلة، فهو يرى بأن "الإدراك الصحيح لماهية خطأ الإنسان سيبطل بالتأكيد كل الأكاذيب التي نسبت لله والمتعلقة بنجاة الإنسان، وأن هذه الأفكار الحمقاء والمبالغ فيها لا تفيد الإنسان، كما أن الأفكار والأحكام الموضوعة وغير المنطقية

[1]– المصدر نفسه، ص 142.
[2]– الفاروقي: نظرية الإنسان في القرآن الكريم، ص 490.
[3]– المصدر نفسه، ص 472.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

للكنيسة، وكذلك المعاملة القاسية من قبل القساوسة، جعلت الحياة الإنسانية تصاب بخلل واضطراب، ومنعتها كذلك من الوصول إلى الحقيقة والسعادة"[1].

وهكذا، يرى الفاروقي أن التصور المسيحي للإنسان لا يستند إلى أي أساس منطقي أو ديني صحيح، وأن هذه العقيدة "لا تؤمن للإنسان قيامه بعملية العمران، لأنها تدك العمران، وتسقط العمران، وبنفس الوقت ترفع من شأن الإنسان ارتفاعا هائلا، تسمح له فيه بالتجبر والتكبر واستعمار الآخرين من البشر"[2]. وبالنظر إلى هذه المعتقدات الباطلة، فإن هذه العقيدة كانت محل سخط ونقد من طرف العلمانيين أتباع المذهب الأنسني في عصر النهضة وما بعده بحيث لم يتقبلوا ما جاء من أفكار وتصورات عن الإنسان وحياته في العقيدة المسيحية.

4 ــ نقد المذهب الأنسني (Humanisme)

ظهر المذهب الأنسني في أوروبا كرد فعل على ممارسات الكنيسة المسيحية ومعتقداتها التي أسلفنا إليها الذكر، ولهذا دعا أنصار هذا المذهب إلى علمنة الحياة، أي إلى استبعاد الدين وفصله عن مجالات الحياة المختلفة، واحتلت مقولة الإنسان عندهم نفس المكانة التي احتلتها مقولة الله في الفكر الديني المسيحي، وبذلك رفعوا من شأن الإنسان وقدره لدرجة تأليهه، حيث أصبح مركز الوجود ومحور التفكير كله، وجعلوا سعادته هي غاية كل نظام من أنظمة الحياة، وفي سبيل ذلك رفعوا شعار حقوق الإنسان، وفي مقدمتها الحرية المطلقة، واستبعدوا الأخلاق الدينية وأحلوا محلها أخلاق اللذة، حيث قالوا بأن سعادة الإنسان تكمن في تحصيل اللذة وتجنب الألم، ومن ثمة، جعلوا غاية الإنسان في الحياة هي البحث عن إشباع لذاته بكل الوسائل المتاحة دون

[1] – الفاروقي: نظرية الإنسان في القرآن الكريم، ص 490.
[2] – المصدر نفسه، ص 472.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

مراعاة أي اعتبارات أخرى، دينية أو أخلاقية، فكل ما يحقق لذة يعد خيرا، بل إن الدين ذاته أصبح يخضع لمعيار اللذة.

وينتقد الفاروقي هذا المذهب نقدا لاذعا، مبينا ما ينطوي عليه من تهافت، ففي الوقت الذي يدعي احترام الإنسان والرفع من قدره، نجده يحط من شأنه ليصل به إلى درك الحيوانية، وذلك باتخاذه من اللذة مبدأ له، فبذلك أصبح الإنسان بمثابة حيوان شهواني همه إشباع اللذات، وبذلك جردوا الإنسان من بعده الروحاني والمتعالي، وفي ذلك يقول الفاروقي: "غلا الغرب في رعاية الذات الإنسانية وحمايتها بأن ألهها وجعلها وحدها الحقيقة، فأصبح إشباع رغباتها هو معيار الخير والشر. صحيح أن هذا من جهة: هو تأليه الإنسان ورفع شأنه. إلا أنه من جهة أخرى: هو مسخ للإنسان بإقصائه عن الله، وعن ملكوت القيم والأخلاق"[1]. كما أن هذا المذهب قد جعل من الإنسان حيوانا أنانيا، يطمع في الحصول على المادة، وفي سبيل تحصيل هذه المادة، يسمح لنفسه بالنهب والسرقة والقتل لاسيما إذا كان الملك وإذا كانت الحياة، وإذا كان المحتقر شخصا آخر غير ابن عصبيته، غير ابن قبيلته[2].

وبذلك، فإن هذا المذهب يقع في تناقض كبير من حيث أنه يرفع شعار النزعة الإنسانية في الوقت الذي نجده يميز بين بني البشر تمييزا عرقيا، ومن ثمة، راح يبرر مشروعية الاستعمار الغربي ضد شعوب إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وفي الوقت الذي يرفع شعار حقوق الإنسان، نجد أن هذا الإنسان الذي يتحدث عنه في الواقع ليس الإنسان العالمي الكوني بقدر ما هو الرجل الغربي الأبيض، الذي له الحق وحده في ممارسة

[1]– الفاروقي: نحن والغرب، مجلة المسلم المعاصر، ع11، رجب ــ شعبان ــ رمضان/ جويلية ــ أوت ــ سبتمبر 1379ه/ 1977، ص28.

[2]– الفاروقي: نظرية الإنسان في القرآن الكريم، ص 472.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

الحرية، وله الحق في الحياة الكريمة ولو على حساب غيره من الشعوب، وهو ما يدل على نزعة عنصرية استعمارية، ومن ثمة، فإن هذا المذهب ليس له من النزعة الإنسانية إلا الاسم، وبذلك يرى الفاروقي أن المذاهب الأنسنية شأنها شأن المذاهب الوطنية أو القومية لا تعود بالنفع إلا على فئة معينة. وفي مقابل ذلك، فإن الأفراد أو المجموعات أو الشعوب التي تستعمر من قبل أصحاب هذه المذاهب تفقد حقوقها الإنسانية[1].

وهكذا، يتبين لنا أن الفكر الغربي بنوعيه الديني والفلسفي لم يستطع تقديم تصور صحيح عن الإنسان، وعن الحياة الإنسانية، وأن شعار النزعة الإنسانية الذي يتغنى به، لا أثر له في الواقع، بالنظر إلى واقع الإنسان الغربي من جهة، وبالنظر إلى كون مقولة الإنسان في هذا الفكر لا تنسحب سوى على فئة قليلة من الناس، هم بالتحديد الإنسان الغربي الأبيض، إن لم يكن الإنسان صاحب الامتياز الطبقي (امتياز المال أو المنصب أو القوة والنفوذ) فهو صاحب الحق والفضل دون غيره من البشر.

ثالثا: التصور البديل للإنسان عند الفاروقي

إذا كان الفاروقي قد انتقد مختلف المذاهب والاتجاهات الدينية والفلسفية الغربية في نظرتها إلى الإنسان، وهو ما يعبر عن الجانب التفكيكي في فكره، فإنه لم يكتف بعملية التفكيك هذه، بل تجاوزها إلى عملية التركيب، حيث حاول تقديم نظرية بديلة عن الإنسان مستمدة من القرآن الكريم، بما يدل على أصالة هذه النظرية، فما هو تصور الإنسان في القرآن الكريم؟ وما هي معالم النزعة الإنسانية فيه، حسب تصور الفاروقي؟ وما هي مكامن الأصالة فيها؟ وما قيمتها وأبعادها؟.

إن ملامح النزعة الإنسية في القرآن، حسب تصور الفاروقي، تتجلى من خلال نظرية خلق الإنسان، كما تتجلى من خلال نظرية الخلافة (خلافة الإنسان لله في

[1] – الفاروقي: نظرية الإنسان في القرآن الكريم، ص 472.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

الأرض)، فالنظرية الأولى تظهر أفضلية الإنسان على سائر المخلوقات من حيث تركيبه أو تكوينه الخلقي، فقد خلق الإنسان، حسب تعبير القرآن الكريم، في أحسن تقويم، وأما النظرية الثانية، فتظهر أفضليته من حيث وظيفته ومهمته الوجودية في الحياة التي استحقها بفضل حسن تقويمه، ونعني بذلك استخلافه في الأرض، وهكذا، فإن الوقوف على ماهية الإنسان وحقيقته في تصور الفاروقي يقتضي منا استعراض هاتين النظريتين كلا على حدى، دون أن يعني ذلك الفصل التام بينهما، فهما مترابطتان ومتكاملتان كما سنرى.

1 ــ نظرية خلق الإنسان في القرآن وأبعادها الإنسية

إن الإنسان في التصور القرآني كائن مركب من مادة وروح، وهذا على خلاف التصور الغربي المادي، الذي ينظر للإنسان على أنه جزء من الطبيعة، ومن ثمة، فهو يسوي بينه وبين الموجودات الأخرى، والإنسان بحكم هذا التركيب المزدوج (مادة وروح) يفضل جميع الموجودات الأخرى، إنه يشترك مع بقية الموجودات من حيث تكوينه المادي الذي يعود إلى أصله الترابي، وفي الوقت نفسه يتميز عنها بجوهره الروحي ذو الأصل الإلهي، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي نفخ فيه الله من روحه، وهو ما يجعل منه "كائنا ربانيا"، هذا التكوين المركب للإنسان هو الذي عبر عنه تعالى بقوله: "إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين"[سورة ص: 71ــ 74]، فالإنسان، طبقا لهذه الآيات الكريمة، خلق "من طين، أي من مادة. ولو كان الأمر قد اقتصر على ذلك لما كان هناك أي سبب لتفضيل الإنسان على غيره من الكائنات. ولكن الله ــ جلت حكمته ــ أضاف إلى هذا الكائن المادي عنصرا روحيا آخر نسبه إلى نفسه وهذا ما تقر عنه الآية الكريمة: "فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين" [الحجر:29]، فالإنسان هو الكائن الوحيد

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

في هذا الوجود الذي نفخ الله فيه من روحه. وقد كانت هذه النفخة الروحية الإلهية هي مناط التكريم الذي حظي به الإنسان. ومن أجل ذلك طلب الله سبحانه وتعالى من الملائكة أن يسجدوا لآدم تكريما له"[1].

إن هذا التكوين (التركيب) يدل، من جملة ما يدل عليه، على أن الإنسان في التصور الإسلامي كائن متعدد الأبعاد، ومن ثمة، فإن "الإسلام يوجب على الإنسان تسيير كل أبعاد حياته: كالبعد الفيزيولوجي، والبعد الاجتماعي، والبعد الثقافي، والبعد العلمي، والبعد المعنوي، والروحي سوية"[2]، فالإنسان مطالب، من منطلق تكوينه المركب، بأن يتصرف وفقا لطبيعته المادية ووفقا لطبيعته الروحية في آن واحد دون اختزال لأي بعد منهما، فلا يهمل مطالب الجسم، كما لا يهمل مطالب الروح، بل عليه أن يوازن بينهما بما يحقق له التوازن والتكامل، الذي يجعله في أفضل صورة أرادها الله له، وهي صورة الكمال الإنساني، وبذلك تتحقق له الأفضلية على سائر المخلوقات، دون أن يؤدي ذلك إلى تأليهه، فالتوحيد الإسلامي، كما يقول الفاروقي، يقوم على مجموعة من المبادئ، منها مبدأ الثنائية، الذي يميز بين الخالق والمخلوق[3]. والله خلق الإنسان على أفضل صورة حتى ينسجم مع الوظيفة التي كلف بها، والغاية التي وجد من أجلها، يقول الفاروقي: "يؤكد التوحيد أن الله خلق الإنسان في أحسن صورة لكي يعبده ويقدس له"[4]، فتكليفه مرتبط بطبيعة تكوينه وخلقته، فإذا تصرف الإنسان ككائن مادي، أي، من منطلق بعده المادي فقط، يكون بذلك قد قصر عن أداء وظيفته الروحية التي كلف

[1]– زقزوق، محمود حمدي: الإنسان في التصور الإسلامي، ص09.
[2]– الفاروقي: نظرية الإنسان في القرآن الكريم، ص 491.
[3]– الفاروقي: التوحيد. مضامينه على الفكر والحياة، ص46.
[4]– الفاروقي: أطلس الحضارة الإسلامية، ص140.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

بها من منطلق بعده الروحي، وإذا تصرف من منطلق بعده الروحي فقط، وهي المهمة التي حددتها له بعض المذاهب الصوفية المتطرفة، التي ربطت كمال الإنسان بسموه الروحي فحسب، كان بذلك مقصرا في أداء مهامه المادية التي كلف بها بحكم بعده المادي، ولهذا نجد الإسلام، على خلاف المذاهب المادية والروحية جميعا، يرى بأن الإنسان يبلغ كماله ويحقق توازنه، بالموازنة بين الحياة المادية والروحية، فيحقق بذلك مطالب الروح والجسم معا، وهو ما دل عليه قوله تعالى: "وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا."[القصص:77]. وهكذا، يتضح بأن خلق الإنسان على الصورة والهيئة والبنية التي خلق عليها كان لحكمة أرادها الله، مصداقا لقوله تعالى: "إنا كل شيء خلقناه بقدر" [القمر:49] فلم يكن هذا التركيب الخلقي على سبيل العبث أو المصادفة، فالتركيب الذاتي للإنسان "يشتمل على جزء روحي يمكنه من السمو والعلو نحو الأفق الإلهي الأعلى ليقبس من هذا الأفق مضمون الخلافة أمرا ونهيا على سبيل الإدراك والاستيعاب والتحمل، كما يشتمل على جزء مادي يمكنه من مباشرة الأرض بالسعي فيها للإنشاء والتعمير. فالإنسان من حيث تركيبه وضع في قمة الكون، وكرمه الله بالنفخة الروحية ليكون قادرا على أن تكون له حركة فعالة في مجال يتلقى في أحد طرفيه الأمر الإلهي، وينفذ في الطرف الآخر ذلك الأمر على مسرح الأرض وذلك هو جوهر مهمة الخلافة. وبالمقارنة فإن الكائنات ذات الطبيعة الواحدة لم يعهد إليها الله مهمة الخلافة في الأرض لأنها إذا ما كانت روحانية صرفا فإنها لا تقوى على مباشرة المادة الأرضية بالفعل، وإذا ما كانت مادية صرفا عجزت عن أن تقبس من الأفق الإلهي أوامر الاستخلاف"[1]. على أن هذه الوظيفة المزدوجة للإنسان، والتي تتناسب مع تكوينه

[1]– النجار، عبد المجيد: خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط3، 2005، ص ص (63_64).

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

الذاتي المركب، لا تعني الانفصال بين الجانبين أو البعدين المادي والروحي، فالإنسان عبارة عن وحدة لا انفصام فيها (انسجاما مع التوحيد الذي هو جوهر الإسلام كما يقول الفاروقي)، عكس ما تراه الثنائية الغربية، فالنشاط العضوي الذي يؤثر في الأشياء المادية لا ينفصل عن المقصد الروحي، وهو ما يتضمنه لفظ "العبادة" في قوله تعالى: "وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون" [الذاريات:56]، فإن كل ما يقوم به الإنسان من سلوكيات وأنشطة استجابة لأمر الله وابتغاء مرضاته يدخل في صميم العبادة، بما يدل على المزاوجة والارتباط بين أبعاد الإنسان المختلفة (التي تعود في الأصل إلى بعدين: مادي ومعنوي)، فالإنسان إذا أفرط في الروحانية بما يخل بمطالب الجسم ومطالب الحياة المادية (كأن يعتزل الحياة ويبخس الجسم حقوقه)، فإن ذلك يتنافى مع جوهر العبادة، وبالمثل، فإنه إذا أفرط في الاهتمام بالبدن وما ينجم عن ذلك من اشتغال بالماديات، فإن ذلك يؤدي إلى إهمال الروح والتقصير في مطالب الحياة الروحية، وذلك أيضا يتنافى مع جوهر العبادة في الإسلام.

وإذا كان الإنسان مكرم ومفضل على سائر المخلوقات من حيث خلقته، إذ أنه الكائن الوحيد الذي نفخ فيه الله من روحه، فكان بذلك كائنا ربانيا، فإن في خلق الإنسان وخلقته ما يدل على رفعة شأنه وتكريمه في المنظور الإسلامي، وذلك يشكل مظهرا آخر من مظاهر الإنسية الإسلامية، ونقصد بذلك الصورة التي خلق عليها الإنسان، فقد خلق على أحسن صورة ممكنة، وهو ما دلت عليه الآية الكريمة: "لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم"[التين:4]، فعبارة "أحسن تقويم" تدل على أن الإنسان ركب وصور وعدل على أحسن هيأة، سواء من حيث الصورة المادية الجسمية (الخارجية والداخلية) أو من حيث الصورة المعنوية (العقلية والنفسية)، قال تعالى: "وصوركم فأحسن صوركم"[غافر:64]، وفي الحديث الشريف: "خلق آدم على صورة الرحمن"،

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

وهل هناك ما هو أفضل من صورة الرحمن؟ ولاشك أن في ذلك تكريم كبير للإنسان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن خلق الإنسان على الهيأة التي خلق عليها، إنما هو لحكمة أرادها الله له، بحيث يتناسب ذلك مع التكليف الذي كلف به وهو حمل الأمانة وأداء وظيفة الاستخلاف بما يؤدي إلى تحقيق العبادة التي هي غاية خلقه، وهو ما يؤكده الفاروقي في قوله:" يؤكد التوحيد أن الله برحمته وقصده لم يخلق الإنسان لعبا أو عبثا. فقد منحه الحواس والعقل والفهم وجعله كاملا، بل قد نفخ في الإنسان من روحه ليؤهله للقيام بذلك الواجب العظيم. هذا الواجب العظيم هو السبب في خلق الإنسان. فهو الهدف النهائي للوجود البشري، وهو الذي يحدد ماهية الإنسان ويبين معنى حياته ووجوده على الأرض"[1]، وهكذا، فإن الفاروقي يربط بين الصورة التي خلق عليها الإنسان، والوظيفة التي أنيطت به، وهو ما يجعلنا نتساءل: أين يكمن الامتياز في خلق الإنسان؟ وكيف يمكن لهذا الامتياز أن يساعد الإنسان على أداء رسالته في الوجود التي أرادها الله له؟

إن الإجابة على هذا التساؤل يمكن أن نلتمسها في قول "عبد المجيد النجار": "إن المقصود بالتقويم في بنية الإنسان هو التقويم الشامل الذي يتناول كلا من البنية المادية والبنية المعنوية، فكلاهما خلق على أحسن تقويم، سواء بالنظر إليهما في ذاتهما، أو بالنظر إليهما في ترابطهما ووحدتهما في تكوين الإنسان"[2]، ولعل من أبرز مظاهر الحسن في التقويم المادي "مما هو ظاهر للعيان، ملحوظ بالمشاهدة ما خلق عليه الإنسان من وضع في قامته امتد فيه إلى الأعلى [انتصاب القامة]، وتركزت وسائل الإدراك في طرفها الفوقي، فهو وضع هيأ للإشراف على الظرف المكاني المحيط بالإنسان على أبعاد كبيرة

[1] – الفاروقي: أطلس الحضارة الإسلامية، ص140.

[2] – النجار، عبد المجيد: قيمة الإنسان، الرباط، دار الزيتونة للنشر، ط1، 1996، ص19.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

بحيث تكون له القيومية على تلك الأبعاد في مختلف الجهات، سواء في الاحتراس من الغوائل، أو في رعاية المنافع، أو في الرصد والتطلع لإنشاء المصالح ومراقبتها واستثمارها، فأين الإنسان في هذا التقويم الرفيع من البهيمة التي خلقت مكبة على وجهها، فلا يكون إشرافها إلا على المساحة القليلة من المكان والسمت الواحد من الجهات"[1]، ولا شك أن أي عضو ركب في جسم الإنسان، والمكان الذي ركب فيه من هذا الجسم، إنما يدل دلالة قاطعة على حسن تقويم الإنسان، كيف لا؟ وقد خلقه الله بيده، مصداقا لقوله عز وجل: "ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي."[ص:75]. وبالنظر إلى ذلك، فإن الإنسان لو خير بين الصورة والهيأة والبنية الجسمية التي خلقه الله عليها، وصورة أي حيوان آخر مهما كان له من الحسن أو من القوة، أو غيرهما، فإنه لن يرضى بغير صورته بديلا، لما سيجده من نقص في صورة هذا الحيوان عند تأملها ومقارنتها بصورته، قال تعالى:" أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم"[الملك:22]، "وربما كان البناء في عمق الأنسجة على صورة أعجب من البناء الخارجي في التهيئة لتفاعل الجسم مع المحيط المادي تفاعلا إيجابيا بما يحدث في تلك الأنسجة من أنواع الاستجابات دفاعا عن الجسم ضد كل غزو مادي، وتعزيزا له وتقوية لكفاءته في الأداء لما تستوجبه مصلحته."[2]

فإذا انتقلنا إلى مستوى البنية المعنوية للإنسان، ممثلة فيما وهبه الله من بناء عقلي (العقل بقدراته ووظائفه المختلفة) ونفسي (الغرائز والعواطف والشعور)، وروحي (الروح)، تجلى لنا بصورة أوضح حسن تقويمه، "فإن البنية المعنوية هي أعلى شأنا في ذلك، لأن هذه البنية هي التي تتقوم بها ماهية الإنسان، وهي التي تدبر سيرة

[1] – النجار، عبد المجيد: قيمة الإنسان، ص20.

[2] – نفسه، ص21.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

الاستخلاف، وتسوق الجسم لتنفيذ تدبيرها"[1]. ولاشك أن الإنسان لو لم يعط من المواهب الربانية غير موهبة العقل الذي هو أشرف عناصر البنية المعنوية، لما أحط ذلك من علو قدره شيئا، ولما أنزله ذلك من قمة الهرم في سلم المخلوقات، بالنظر إلى وظيفة العقل وأهميتها في أداء وظيفة الاستخلاف التي كلف بها الإنسان لتتحقق له الغاية من وجوده ألا وهي عبادة الله الواحد، وفي ذلك يقول عبد المجيد النجار: "والعقل أشرف العناصر في هذه البنية، فهو مناط التكليف لانجاز وظيفة الخلافة أصلا، ولذلك فقد بني على خصال عجيبة لأداء تلك الوظيفة على أكمل الوجوه"[2]. ومن جملة هذه الخصال، القدرة على التمييز بين الحق النافع والباطل الضار، فهو بذلك الوسيلة التي تعصم الإنسان من الوقوع في التهلكة، وتبين له موضع المصلحة، والعقل هو الوسيلة التي تمكن الإنسان من معرفة أسرار الكون وقوانينه، فيتمكن بذلك من السيطرة على الطبيعة، وتسخيرها لمصلحته، بما يساعده في النهاية على انجاز مهمة الاستخلاف التي هي غرض وجوده، وغير ذلك من خصائص العقل ومزاياه كثير[3]. ولاشك أن الإنسانية مدينة فيما شيدته من حضارات وانجازات عبر تاريخها الطويل للعقل بالشيء الكثير، بما يدل على رفعة شأنه ومن خلال ذلك، رفعة الإنسان وحسن تقويمه، "وهكذا جاءت صورة الإنسان في بعدها المادي والمعنوي في أحسن تقويم، مفضية إلى تحقيق الغاية من وجوده، وهو ما صوره قوله تعالى: "وصوركم فأحسن صوركم"، إشارة إلى "أن حكمة الله تعالى التي تعلقت بإيجاد ما يحف بالإنسان من العوالم على كيفيات ملائمة لحياة الإنسان وراحته قد

[1]– نفسه، ص22.

[2]– النجار: قيمة الإنسان، ص22.

[3]– النجار: قيمة الإنسان، ص ص(22 _23). وكذلك: الشيباني، عمر التومي. مفهوم الإنسان في الفكر الإسلامي، طرابلس، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ط1، ص261 ما بعدها.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

تعلقت بإيجاد الإنسان في ذاته على كيفية ملائمة له مدة بقاء نوعه على الأرض، وتحت أديم السماء"، وهو أيضا "تقويم خاص بالإنسان لا يشاركه فيه غيره من المخلوقات، ويتضح ذلك في تعديل القوى الظاهرة والباطنة بحيث لا تكون إحدى قواه موقعة له فيما يفسده، ولا يعوق بعض قواه البعض عن أداء وظيفته، فإن غيره من جنسه كان دونه في التقويم...[مما يفيد] أن الله كون الإنسان تكوينا ذاتيا متناسبا مع ما خلق له نوعه من الإعداد لنظامه وحضارته"[1]. ومن هنا يتضح بأن التكريم الذي يحظى به الإنسان في التصور الإسلامي، إنما يدل بحق عن إنسية الإسلام، في مقابل الإنسية الغربية التي هي، على خلاف ما يدعيه أصحابها، تحط من قدر الإنسان، وذلك حين تتبنى نظرية التطور التي ترى بأن الإنسان لم يخلق على أحسن تقويم بل تطور وتدرج من أصول حيوانية إلى أن بلغ الصورة التي هو عليها بالانتخاب الطبيعي، وحين ترد الجانب المعنوي في الإنسان بما يتضمنه من ملكات ومواهب ربانية من روح وعقل وعاطفة وغرائز ترده إلى عمليات فيزيولوجية آلية، بما يجعل من هذا الكائن لا يملك أية أفضلية عن بقية أنواع الحيوان، فهو لا يختلف عنها سوى في درجة التطور.

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن ما يميز الإنسية الإسلامية عن الإنسية الغربية، هو أن هذه الأخيرة ـــ مثلما أشرنا سابقا ـــ هي نزعة تحمل أبعادا عنصرية استعمارية تعكس التمركز الغربي حول الذات، باعتبار أن الإنسان الذي تقصده بالتبجيل هو الإنسان الغربي وحده، وأما الإنسان في التصور الإسلامي، فهو الإنسان بما هو إنسان بغض النظر عن لونه أو جنسه أو دينه، أو لغته، أو أصوله، وبناء على ذلك، يقول الفاروقي: "فإن النظرية الإنسانية للإسلام تعتبر عالمية مائة بالمائة، وتشمل كل البشرية، فما يريده

[1]– بن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير، نقلا عن: عبد المجيد النجار، قيمة الإنسان، ص 24.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

الإسلام من المسلمين لا يختلف عما يريده من البشر"[1]، وهو ما عبر عنه قوله تعالى: "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا"[الإسراء:70]، فالتكريم هاهنا يشمل كل بني آدم، إلا من أبى ذلك، وذلك باختيار طريق المعصية واتباع سبيل إبليس، مصداقا لقوله تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"[الحجرات:13]، بهذا المعنى، فإن التقوى هي مصدر التكريم الإلهي للإنسان، فمن فرط فيها ارتد عن إنسانيته، وانحط إلى أسفل السافلين، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة: "لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون"[التين:4ـــ6]، وقوله تعالى: "والعصر. إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر." [العصر:1ـــ3]. وهكذا، فإن الإسلام، على خلاف المذاهب والديانات الأخرى، دين عالمي يدعو إلى حب الإنسانية كافة، قال تعالى: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"[الأنبياء:107]، وقال أيضا: "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون"[سبأ:28]، يقول الفاروقي: "إن عالمية القرآن، أمر مطلق لاشك فيه وليس هناك أي استثناء. كما أن القرآن يبين للمسلمين بأن عليهم أن لا ينظروا إلى لون البشرة، والعرق، والقومية، والجنس، وآداب وتقاليد البشر"[2]، وبحسب الفاروقي، فإن مبدأ "حب الإنسانية" الذي جاء به القرآن قد تجسد في حياة المسلمين وحضارتهم، يقول: "إن تمسك المسلمين بالقرآن، جعلهم يوجدون مجتمعا عالميا يتساوى فيه كل

[1] – الفاروقي: نظرية الإنسان في القرآن، ص491.

[2] – الفاروقي: نظرية الإنسان في القرآن، ص 484.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

الأفراد مع بعضهم"[1]. فالإسلام لا يميز بين الناس إلا على أساس التقوى والعمل الصالح، يدل على ذلك قوله تعالى: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"، وقوله صلى الله عليه وسلم: "لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح".

2 ــ نظرية الاستخلاف وأبعادها الإنسانية

إن التصور الإسلامي للإنسان، سواء فيما يخص تكوينه المركب، أو فيما يخص حسن تقويمه، يرتبط في نظر "الفاروقي" ارتباطا وثيقا بنظرية الاستخلاف، هذه النظرية التي تتمحور حول وظيفة الإنسان في هذا الوجود، وعلة وجوده، وهو ما يؤكده الفاروقي في قوله: "يؤكد التوحيد أن الله برحمته وقصده لم يخلق الإنسان لعبا أو عبثا. فقد منحه الحواس والعقل والفهم وجعله كاملا، بل قد نفخ في الإنسان من روحه ليؤهله للقيام بذلك الواجب العظيم. هذا الواجب العظيم هو السبب في خلق الإنسان. فهو الهدف النهائي للوجود البشري، وهو الذي يحدد ماهية الإنسان ويبين معنى حياته ووجوده على الأرض"[2]، إلى ذلك، يمكن القول بأن خلق الإنسان على النحو لذي خلق عليه إنما كان لغرض أداء وظيفة الاستخلاف، أي أن "تمايز الإنسان عن سائر المخلوقات في الخلقة والخصائص، في مزاياه المادية والروحية لم يكن ذلك للإنسان بغاية الشكر والعبادة وحسب، وإنما هناك غاية أخرى، وهي ما خص به الإنسان من دور ووظيفة في هذه الحياة، فإليه أوكلت مهمة عمارة الأرض وله أعدت الجنة والجحيم والثواب والعقاب...وفضلا عن ذلك فهو خليفة الله في الأرض"[3]، وفي هذا الصدد يقول النجار: "إن الإعلان الإلهي عن خلق الكائن الجديد (الإنسان) جاء مرفوقا ببيان المهمة التي أنيط

[1]– نفسه، ص484.

[2]– الفاروقي: أطلس الحضارة الإسلامية، ص140.

[3]– فرح، موسى: الإنسان والحضارة في القرآن الكريم بين العالمية والعولمة، ص29.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

بعهدته الاضطلاع بها، وذلك في قوله تعالى:" وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة"[البقرة:30]، بل إن تسمية هذا الكائن الجديد في سياق الإخبار بخلقه كانت تسمية بحسب وظيفته وهي الخلافة، وذلك ينطوي على دلالة بالغة في إبراز هذه الوظيفة والتنويه بشأنها"[1]، وهكذا نجد أن الفاروقي في صياغة وبناء نظرية الإنسان في القرآن يركز كثيرا على نظرية الاستخلاف، ففي ضوء هذه النظرية تتحدد ماهية الإنسان وقيمته في القرآن. فما مضمون هذه النظرية في تصوره يا ترى؟

إن هذه النظرية تستمد مرجعيتها وتصورها من القرآن الكريم، فقد أشارت أكثر من آية في القرآن الكريم إلى أن الإنسان هو خليفة الله في الأرض، من ذلك قوله تعالى: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة"[البقرة:30]، وقوله عز وجل: "وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم"[الأنعام:165]، وقوله أيضا: "هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا"[فاطر:39]، فظاهر هذه الآيات يدل على أن أمر الله وإرادته اقتضيا أن يكون الإنسان خليفة الله في الأرض، وهذا الاصطفاء الإلهي إنما يدل على التكريم والتشريف الذي يحظى به الإنسان في الإسلام، فلا الملائكة التي خلقت من نور، ولا الجن الذي خلق من نار، ولا بقية المخلوقات الأخرى حظيت بشرف الاستخلاف، بما يدل على المنزلة الرفيعة التي يختص بها الإنسان عند ربه، وبها استحق الأفضلية على سائر المخلوقات، واستحق سجود الملائكة له. ولكن الخلافة كما هي تشريف وتكريم فطري للإنسان، وهبها الله له بما هو إنسان، فإنها إلى جانب ذلك، وظيفة ورسالة وأمانة وواجب ومسؤولية عليه أن يؤديها على أكمل وجه وإلا انقلب الأمر عليه، فيرتد إلى

[1]– النجار: خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص61.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

أسفل سافلين، فيكون مصيره الخسران في الدنيا والآخرة، مصداقا لقوله تعالى: "لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين."[التين:4ـــ5]. ولما جاء اللفظ "خليفة" في القرآن بصيغة العموم، فإن المفسرين والمفكرين المسلمين قد تفننوا في تفسيره وتأويله واستخراج دلالاته وأبعاده، ومنهم الفاروقي الذي اجتهد كغيره في تحديد معنى الخلافة وفحواها وغايتها وخطة تحقيقها، وهو ما سنوضحه فيما يلي.

2ـــ1ـــ فحوى الخلافة وخطة تحقيقها

برى الفاروقي أن الخلافة، بمعنى خلافة الإنسان لله في الأرض، هي الغاية من وجود الإنسان، فالإنسان خلق في هذا الوجود لتأدية هذه الوظيفة، مصداقا لقوله تعالى: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة"[البقرة:30]. و فحوى هذه الوظيفة، حسب تصور الفاروقي، هي حمل الأمانة التي كلف الإنسان بحملها، والتي دل عليها قوله تعالى: "إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا."[الأحزاب:72][1]. إن هذه الآية الكريمة تشير، من جملة ما تشير إليه، إلى أن الإنسان هو حامل أمانة إئتمنه الله عليها، وفي ذلك تشريف كبير له، لأن الأمانات لا تعطى في العادة (في الشاهد) إلا لمن هو أهل للثقة، وهذه الثقة عنوان على حسن الخلق والوفاء والإخلاص والتضحية...)، هذا في الأمانات الإنسانية العادية من مال وغيره من الودائع المادية، فما بالك عندما تكون الوديعة إلهية، فإن ذلك كما يدل على جلالة الوديعة وقدسيتها، فإنه يدل أيضا على المكانة الرفيعة للمؤتمن عليها عند صاحب الوديعة وهو الله سبحانه وتعالى، يقول النجار في ذلك: "ويبدو أن المعنى الأسمى الذي تضمنه التعبير بالأمانة على التكليف هو بيان قيمة الإنسان ورفعته من بين سائر الكائنات، لأن الأمانة من شأنها أن لا تعرض من بين الناس إلا على من عرف

[1]– الفاروقي، نظرية الإنسان في القرآن، ص470.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

بالتميز والعلو الخلقي، كما كان الرسول (ص) في مكة، فإنه كانت تودع عنده الأمانات لما كان من رفعته في قومه حتى سمي بالأمين"[1].

وقد ذهب المفسرون والعلماء مذاهب شتى في تحديد ماهية هذه الأمانة[2]، ومنهم "الفاروقي" الذي كان له

اجتهاده الخاص في ذلك، حيث فسر الأمانة في هذه الآية بالتقوى، وذلك في قوله: "والأمانة التي لم تستطع السماوات والأرض والجبال أن تحملها هي التقوى"[3]، والتقوى هي طاعة الله وعبادته على نحو ما أمر، وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه، فالإنسان، بهذا المعنى، مكلف بطاعة الله وعبادته في هذه الحياة، وتلك هي الغاية من وجوده، كما جاء في القرآن الكريم: وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون" [الذاريات:56]. أي أن الإنسان استخلف في الأرض بغرض عبادة الله وطاعته، أي تنفيذ القانون الأخلاقي بما يؤدي إلى تحقيق النموذج(النسق) الإلهي لما ينبغي أن تكون عليه حياة الإنسان على هذه الأرض، وهو ما يوضحه قول الفاروقي: "وما الأمانة، أو المشيئة المقدسة التي عجزت السماوات والأرض عن تحملها، إلا القانون الأخلاقي المؤسس على حرية الخليقة"[4]. وهنا يأتي السؤال: لماذا أبت السماوات والأرض والجبال حمل هذه

[1]– النجار، قيمة الإنسان، ص 24.

[2]– ينظر في ذلك: النجار: قيمة الإنسان، ص26. وأيضا: العقاد، عباس محمود: الإنسان في القرآن، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط6، ص32 وما بعدها، وكذلك: عبد الرحمن، عائشة (بنت الشاطئ)، مقال في الإنسان، القاهرة، دار المعارف، ط3، د.ت، ص51 وما بعدها. وأيضا: محمد حسن الأمين: حرية الإنسان بين القرآن والفكر المعاصر، مجلة المنطلق، لبنان، ع111، 1415/1995هـ، ص13.

[3]– الفاروقي: نظرية الإنسان في القرآن، ص473.

[4]– الفاروقي: التوحيد مضامينه على الفكر والحياة، ص(39 ـ 40).

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

الأمانة؟ وما الذي اختص به الإنسان دون هذه الموجودات حتى استطاع حمل هذه الأمانة؟ وماهي دلالة هذا التكليف؟

أ ــ الحرية شرط الاستخلاف

إن حمل الأمانة، أي، تقوى الله وعبادته، تشترط، في نظر "الفاروقي" حرية الاختيار، وبهذا المعنى، فإن السلوك لا يكون أخلاقيا، ولا يكون للتكليف من معنى، إذا لم يكن لصاحبه القدرة على إتيان الفعل أو الامتناع عنه، وبالنظر إلى ذلك، ولما كان الإنسان وحده يملك القدرة على الاختيار بين طاعة الله أو عصيانه، فإن أفعالها وحدها تكتسب قيمة أخلاقية، وأما بقية الموجودات فلا تملك حرية الاختيار، بحيث خلقت على نحو يجعلها تنفذ إرادة الله بصورة جبرية، فهي لا تتصرف إلا وفق النواميس والسنن التي وضعها الله لهذا الكون، أي أنها تستجيب طوعا أو كرها طبقا لما يسميه الفاروقي بـــ"الأمر الإلهي التكويني" أو "ضرورات القانون الطبيعي"، فهي لا تملك القدرة على عصيان الأمر الإلهي، وبذلك فإن استجابتها لأوامر الله وطاعتها له لا يدل من جانبها على سلوك أخلاقي، أي على التقوى، إذ لا يمكنها أن تتصرف بخلاف ذلك، وفي ذلك يقول الفاروقي: "والأمانة التي لم تستطع السماوات والأرض والجبال أن تحملها هي التقوى، ذلك أن إرادة الله تنفذ جبرا في السماء والأرض، وجميع المخلوقات ومن ضمنها الملائكة تطيع الإرادة الإلهية بصورة إجبارية، وطاعة المخلوقات تعتبر جزءا من قوانين الطبيعة والإرادة الإلهية الجبرية في الخلقة، ولا يمكن الخروج عنها مطلقا. قال تعالى: "ولن تجد لسنة الله تبديلا[الأحزاب:62]...وإن الباري تعالى جعل هذه الطاعة إحدى سننه في خلقه، وخلق الإنسان ــ فقط ــ حرا ليطيعه أو يعصيه باختياره. والتقوى تعتبر أكبر وأعظم القيم التي يؤكد عليها الله[1]، نفهم من هذا، أن الأمانة التي حملها الإنسان تتمثل

[1] – الفاروقي، نظرية الإنسان في القرآن، ص473.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

في تكليفه بطاعة الله، والتي تتجلى في فعل الخير واجتناب الشر، أي تنفيذ أوامر الله واجتناب نواهيه(القانون الأخلاقي الإلهي الذي هو تعبير عن الإرادة الإلهية المقدسة)، وأن اختصاص الإنسان بهذا التكليف دون سواه من المخلوقات، إنما يرجع لما يتميز به من حرية اختيار، فهو وحده من يستطيع قول لا، وهذا ما يسميه الفاروقي بـــ"الحرية الأخلاقية"، فالإنسان، كما يقول الفاروقي، خلقه الله حرا لكي يطيعه باختياره أو يعصيه أيضا باختياره، "فالحرية أو إمكانية التحلي بالتقوى وتحقيق القيم الأخلاقية، هي أعظم صفة منحها الله للإنسان"[1]، وهكذا نفهم مع الفاروقي لماذا أبت السماوات والأرض والجبال حمل الأمانة، ولماذا حملها الإنسان؟ فإن ذلك، كما يقول، يرجع لما اختص به الإنسان من حرية اختيار دون غيره من الموجودات، فالفعل الحر وحده يستحق أن يكون فعلا أخلاقيا، وهذا الفعل الأخلاقي هو الأمانة التي كلف الإنسان بحملها، يقول الفاروقي: "وهذا أبلغ دليل على أن الفهم الإسلامي للأمانة التي حملها الله للإنسان على أنها فعل أخلاقي"[2]، وهكذا، فإن ماهية الإنسان في التصور الإسلامي الذي يتبناه "الفاروقي" تتحدد بكونه "خليفة الله في الأرض"، كما تتحدد أيضا بكونه كائن أخلاقي*، فالإنسان خليفة الله في الأرض، بمعنى أنه الجسر الذي تتحقق من خلاله إرادة الله المقدسة على وجه الأرض، وما هذه الإرادة سوى قانون الله الأخلاقي الذي يتجلى في ما أمر به من خيرات وما نهى عنه من سيئات، يقول الفاروقي: "فالإنسان مخلوق كوني، له أهمية كونية لأن الكون ليس كونا بدون الجانب الأهم والأعلى من الإرادة

[1]– المصدر نفسه، ص474.

[2]– الفاروقي: التوحيد مضامينه على الفكر والحياة، ص ص(39 ــ 40).

*– يرى طه عبد الرحمن في هذا الصدد أن التعريف المنطقي للإنسان هو أنه "كائن أخلاقي" وليس "كائن ناطق".

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

الإلهية. ولا محقق لها سوى الإنسان في عمله الحر الاختياري، الأخلاقي. فطوبى للإنسان أن يكون الجسر الكوني الذي تعبره إرادة الله الأخلاقية لتدخل التاريخ، لتتحقق في الزمان والمكان"[1]، وهذا التصور للإنسان له في الواقع عدة دلالات إنسانية، فهو يدل أولا على التكريم الإلهي للإنسان، وفي ذلك يقول الفاروقي: "ومن هنا فإن الإنسان هو المخلوق الوحيد، الذي يتوفر في فعله الشرط الأخلاقي، وهو الفعل الحر...ومن الواضح أن القيمة الأخلاقية للفعل الحر هي الشق الأسمى من الإرادة الإلهية التي لأجلها خلق الله الإنسان، وأنعم عليه بأن جعله خليفة بأمره في الأرض...وبهذه النعمة الإلهية صار الإنسان أسمى مكانة من الملائكة ، لكونه أقدر على فعل ما لا يقدرون هم على فعله. ومن بين الأدلة القرآنية على هذا التكريم الإلهي للإنسان: "وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ...الكافرين"[البقرة: 34]، فالإنسان قادر على التصرف على نحو أخلاقي، بعكس المخلوقات الأخرى. والإنسان يخضع شأنه شأن المخلوقات الحية النباتية والحيوانية للسنن الإلهية التكوينية الطبيعية، في وجوده المادي على ظهر البسيطة، بوصفه شيئا من الأشياء الكائنة على الأرض. إلا انه يتبوأ في المقابل مكانة لا نظير لها، بوصفه الكائن الحر الذي تتحقق عبره النسق الأسمى من المشيئة الإلهية في الكون. فالإنسان صاحب رسالة كونية، لكونه خليفة أصيلا لتطبيق الأمر التكليفي الإلهي في الأرض، بوصفه الشق الأسمى من الإرادة الإلهية"[2]. وأما الدلالة الثانية، فتتمثل في كون أن هذا التصور يدل على أن الإنسان سيد نفسه في المجال الذي حدده له الله تعالى، فهو يصنع مصيره بيده، قال تعالى:" لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت"[البقرة: 286]،

[1]– الفاروقي: جوهر الحضارة الإسلامية، مجلة المسلم المعاصر، ع27، شعبان ــ رمضان ــ شوال/ يوليو ــ أغسطس ــ سبتمبر 1981، ص17.

[2]– الفاروقي: التوحيد مضامينه على الفكر والحياة، ص ص(39 ــ 40).

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

وقال أيضا: "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره"[الزلزلة:]، وقال أيضا: "ألا تزر وازرة وزر أخرى. وأن ليس للإنسان إلا ما سعى"[النجم:38 ــ 39]، وقال: "ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها"[الشمس:7ــ8]، وقال أيضا: "إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا"[الإنسان:03]، وقال: "من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد"[فصلت:46]، فالإنسان ليس مذنبا بالفطرة ولا يتحمل أخطاء الآخرين، كما في التصور المسيحي. والدلالة الثالثة، هي الإنسان يملك القدرة على التأثير في محيطه الطبيعي (تسخير الطبيعة لصالحه) والاجتماعي و القدرة على تغيير ذاته (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"[الرعد:11]، وتغيير مسار التاريخ، في إطار السنن الإلهية التي تحكم الكون والمجتمع والنفس والتاريخ، وهو ما يشكل له دافعا قويا للتغيير والعمل والتفاعل الإيجابي مع الحياة، وعدم اليأس والاستسلام والهروب من معترك الحياة، على نحو ما نجده في البوذية والمسيحية ــ كما مر معنا ــ وهو ما يؤكده الفاروقي بقوله: "ويتدخل الإنسان المسلم بوصفه خليفة بأمر الله تعالى في الأرض، كحق له وكواجب عليه، في المعطيات الزمانية والمكانية، المادية والنفسية والاجتماعية والروحية المحكومة بسنن كونية، ليعيد توجيه مسارها على نحو يحقق النموذج الإلهي لما ينبغي أن تكون عليه حياة الإنسان على هذه الأرض. ومن هذا المنطلق يتجه تدخل المسلم في إعادة صياغة الزمان والمكان إلى إعادة بنائهما، وليس إلى الهروب منهما، ولا إلى التخلص منهم على شاكلة ما تصبو إليه النزعة الهندوسية والبوذية. ولا يسعى المسلم في عملية إعادة بناء الزمان والمكان هذه، إلى إشباع إرادته الخلاقة، بل إلى الاستجابة لإرادة الله تعالى في الكون. وتأسيسا على ذلك تصير عملية إعادة البناء عبادة لله وطاعة له، وليست عملية غزو للطبيعة، ولا قهر لها، ولا تحدي لها على شاكلة سلوك

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

الإنسان الغربي البروميثيوسي"[1*]. وأما الدلالة الثالثة، فهي أن تكريم الإنسان والرفع من قيمته في الإسلام لا يعني بحال من الأحوال تأليهه، فتصور الفاروقي للإنسان وقيمته يتموقع في إطار الرؤية الكونية التوحيدية التي تقوم على مبدأ الثنائية، فكمال الإنسان وتحقق إنسانيته يعني تنفيذ قانون الله الأخلاقي، أي طاعة الله وعبادته على نحو ما أمر، ولا يعني اتحاده بالله أو حلوله فيه على أي نحو كان، أي أن حرية الإنسان ليست مطلقة كما في التصور الغربي بل تبقى محدودة بالأمر الإلهي وبالإرادة الإلهية، فالرسول (ص)، وهو نموذج الإنسان الكامل في الإسلام، قد استحق هذا الوصف من منطلق أن "خلقه كان القرآن"، فهو لم يبدع ـــ ولم يطلب منه أن يبدع ـــ شيئا ذا قيمة خارج إطار مايسميه "الفاروقي" بـــ "النموذج أو النسق الإلهي". والله عز وجل لم يطلب منا أكثر من الاقتداء بهذا الرسول: "وما أمركم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا" وهذا ما يسميه الفاروقي بإنسانية التوحيد تمييزا لها عن إنسانية الغرب، يقول الفاروقي: "والإنسان بوصفه صاحب الفعل الأخلاقي يجب أن يكون قادرا على تغيير نفسه وأمثاله من البشر، أي المجتمع، والطبيعة، أي محيطه، لكي يحقق النسق، أو الأمر الإلهي، في نفسه كما في تلك الأشياء جميعا..."[2]، فالحرية الإنسانية، إذن حرية هادفة، ذات مقصد أخلاقي تعبدي، وهو ما يجعل منها حرية أخلاقية إلهية على خلاف الحرية في النسق الغربي فهي حرية حيوانية "ليست مزودة إلا بوسائل عالية تشبع، بطريقة أكثر تعقيدا،

[1]– الفاروقي: التوحيد مضامينه على الفكر والحياة، ص31. وكذلك: الفاروقي: أطلس الحضارة الإسلامية، ص133.

*– البروميثيوسي: نسبة إلى الإله "بروميثيوس"، الذي سرق النار من الآلهة وأعطاها للإنسان، الذي صار بفضل ذلك كائنا متجبرا ومغرورا بعلمه، كما تقول الأسطورة اليونانية.

[2]– الفاروقي: أطلس الحضارة الإسلامية، ص133.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

حاجات الاستهلاك، والتملك، والعدوان، تلك الحاجات التي تبقى أساسا حيوانية"[1]، إن هذه الحرية لا تليق بالإنسان ولا تنسجم مع إنسانيته، على خلاف الحرية الإلهية، التي "تجتهد في إجابة الحاجات البشرية المميزة، وإجابة المسائل عن معنى محيانا ومماتنا، أي في نفس الوقت حاجة البحث عن تكليف الله، وحاجة الخضوع له... وذلك مع الخطر الدائم بأن نخطئ، لكن هذا الخطر هو الذي يجعل منا بشرا، فالإيمان يبدأ من حيث ينتهي العقل."[2]

إن الفكر الغربي توجه إلى حرية الكائن الإنساني بوصفها الغاية النهائية العليا لنضال الإنسان وسعيه في سبيل التقدم والتطور ولكن لم يطرح السؤال: وماذا بعد؟ أي ماهي غاية الحرية؟...فالاجتماع الغربي (وبالتالي الفكر الغربي) اهتدى إلى مادة الأمانة التي هي الحرية، ولكنه أنكر غايتها التي هي الله"[3].

ب ــ الاستخلاف مسؤولية

إذا كانت الحرية امتياز (نعمة) خص به الله الإنسان، ليتمكن بفضله من حمل الأمانة، وتأدية وظيفة الاستخلاف، فإنها أيضا ابتلاء كبير له، بالنظر لما يترتب عنها من مسؤولية وحساب، ولعل ذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة: "إنه كان ظلوما جهولا"، فأكبر ابتلاء للإنسان هو أنه منح حرية الاختيار بين فعل الخير وفعل الشر، والقدرة على تنفيذ الأمر الإلهي وعصيانه، ولعل ظلم الإنسان لنفسه وجهله بمسؤولية حمل الأمانة، هي التي تتجلى في قول الكافر يوم القيامة: "يا ليتني كنت ترابا"[النبأ:40]، فهو يتمنى لو كان

[1]– غارودي، رجاء: الإسلام وأزمة الغرب، ترجمة: رفيق المصري، السعودية، دار عالم المعرفة، جدة، السعودية، ط1، 1983 ، ص27.

[2]– نفسه، ص ص(27_28).

[3]– الأمين، محمد حسن: حرية الإنسان بين القرآن والفكر المعاصر، ص ص (12 ــ 13).

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

ترابا حتى يعفى من هذه الحرية وما يترتب عنها من تبعات، وهكذا، فإن نظرية الإنسان عند الفاروقي، مثلما تعتبر الحرية شرطا أساسيا لاستخلاف الإنسان وتكليفه بحمل الأمانة، فإنها تعتبر المسؤولية شرطا أساسيا لهذا الاستخلاف وإلا فلا معنى له، وفي ذلك يقول: "إذا كان الإنسان ملزما بتغيير نفسه ومجتمعه ومحيطه لكي يتماشى كلها مع النسق الإلهي، وكان قادرا على فعل ذلك ، و إذا كان كل هدف في فعله مطواعا وقادرا على تلقي فعله وتجسيد غايته، ينتج عن ذلك بالضرورة أن يكون الإنسان مسؤولا. والالتزام الأخلاقي مستحيل من دون مسؤولية أو حساب. فما لم يكن الإنسان مسؤولا، وما لم يكن محاسبا على أفعاله، يغدو التشكيك لا مهرب منه، تارة أخرى، فالحساب، أو تحقق المسؤولية، شرط لازم للالتزام الأخلاقي والإلزام الأخلاقي...وطاعة الله، أي القيام بما أمر وتحقيق نسقه يعني بلوغ الفلاح والسعادة واليسر، وخلاف ذلك، أي معصيته، يستجلب العقاب والعناء والشقاء وآلام الخسران"[1]، قال تعالى:"فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى"[الليل:5 ــ10]، وقال: "إن للمتقين مفازا."[النبأ:31]. إن التكليف بلا حرية يصبح ظلما، والله عز وجل منزه عن الظلم: "إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون"[يونس:44]، "إن الله لا يظلم مثقال ذرة"[النساء:40]، والحرية بلا مسؤولية فوضى وعبث، ولعل هذا ما يفسر الفوضى والعبثية التي تميز المجتمعات الغربية، لأنها أطلقت العنان للحرية، و لم تحاسب عليها، أو أنها جعلت مسؤوليتها تحت طائلة القانون الوضعي الذي وضعه إنسان على حسب مقاسه ولخدمة مصالحه الخاصة.

وتأكيدا لموقف الفاروقي، يقول النجار: "إن التكليف مبني على حرية الاختيار بين طريق الخير الذي جاءت تبينه الأوامر الإلهية وطريق الشر الذي جاءت تبينه النواهي،

[1]– الفاروقي: أطلس الحضارة الإسلامية، ص134.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

وقد ركب الإنسان على ما يمكنه من اختيار أحد الطريقين والمضي فيه، وهو ما وصفه تعالى بقوله: "ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها"[الشمس:7ـــ8]، وفي قوله: "وهديناه النجدين"[البلد:10]، وبهذا المعنى يكون التكليف مقتضيا لضرب من الجهاد النفسي يبدو في مغالبة عوامل الشر والسقوط، ونصرة عوامل الخير التواقة إلى الفضيلة. وهذا الجهاد النفسي هو الفرصة الثمينة التي يتمكن الإنسان فيها من التسامي والتصاعد المستمر نحو الاكتمال بما يقمع من نوازع الهبوط فيه، وبما يكتسب من معاني الإنسانية علما وعملا"[1].

ويؤكد الفاروقي على أهمية التقوى، أي طاعة الله وعبادته، معتبرا إياها الغاية التي استخلف الإنسان من أجلها في الأرض، مصداق ذلك قوله تعالى: "وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون" [الذاريات:56]، وقوله جل وعلا: "وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا"[هود:07]، وقوله أيضا: "الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور"[الملك:02][2]، فعلة خلق الإنسان كما يتجلى من هذه الآيات هي العمل الصالح وفعل الخير، وهذا هو المقصود بعبادة الله، وعلى قدر هذه الأمانة، وعلى قدر المسؤولية المترتبة عنها، ولأن الله ليس بظلام للعبيد، بل هو بعباده "لطيف خبير"، فإنه زود الإنسان بمواهب وملكات وقدرات هي بمثابة وسائل للاضطلاع بهذه الأمانة، ومن أهم هذه الوسائل، أدوات المعرفة التي يستطيع بفضلها التمييز بين الحق والباطل، بين الخير والشر، ليهلك من يهلك عن بينة، وفي ذلك يقول الفاروقي: "إن الحرية أو إمكانية التحلي بالتقوى وتحقيق القيم الأخلاقية، هي أعظم صفة منحها الله للإنسان. ولكي يتمكن

[1] – النجار: قيمة الإنسان، ص ص (30 ـ31).

[2] – الفاروقي: نظرية الإنسان في القرآن الكريم، ص474.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

الإنسان من الاستفادة منها ويعمل بها، فقد منحه الباري الشعور والحواس والقلب وقابلية الإدراك والقضاء لكي يستفيد من هذه القدرات بهدف التوصل إلى المعرفة"، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: "إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا"[الإسراء:36]، فقد وهب الإنسان السمع والبصر والفؤاد ليدرك كنه الأشياء ويتصرف، من ثمة، وفق هذه المعرفة، فتكون تصرفاته مبررة ومعقولة، وبذلك يتحمل مسؤولية تصرفاته، فيهلك من هلك عن بينة ويحيا من يحيا عن بينة، كما أن خلق الإنسان على هيأة معينة، إنما هو بمثابة إعداد له لتأدية هذه الأمانة، مثلما يؤكد ذلك الفاروقي في قوله: "خلق الإنسان كاملا، أي خلقه بشكل يكون معه قادرا على العمل، وجعل أعضاءه متناسبة فيما بينها"[1]، وكمال الخلقة هو ما أشار إليه القرآن في أكثر من آية، منها قوله تعالى: "لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم"، وقوله عز وجل:" الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين"[السجدة:07]، وقوله أيضا:" الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم ربكم تبارك الله رب العالمين"[المؤمن:64].

لقد خلق الله الإنسان بيده، مصداقا لقوله تعالى: "قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالمين"[ص:75]، فكيف لا يكون هذا الإنسان في أفضل صورة وفي أحسن تقويم؟ وهذا التشريف في الخلقة إنما كان لغاية أسمى وهي إعداده لحمل الأمانة العظيمة التي اختصه الله بها وهي أمانة الاستخلاف في الأرض، وفي ذلك يقول النجار: "إن قيمة كل شيء من حيث بنيته ترتبط بمدى تحقيق تلك البنية للغرض الذي من أجله وجد[...]وقيمة البنية في الأشياء تتبع قيمة الأغراض المجعولة لها، فكلما كان الغرض رفيعا كانت البنية إذا ما أدت إلى تحقيقه رفيعة القيمة، وهكذا

[1]– المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

تتفاوت الأشياء في قيمتها من حيث تكوينها تفاوتا أوليا بحسب أغراضها، وتفاوتا ثانيا بحسب تأديتها لتلك الأغراض. والإنسان قد خلق لأعلى غاية بالنسبة لموجودات الكون كلها، وهي غاية الخلافة في الأرض لتطبيق أوامر الله فيها، وقد أخبر القرآن الكريم...أنه خلق على أحسن تقويم لتأدية ذلك الغرض، وكان ذلك تكريما إلهيا له"[1].

2 _ 2 _ تسخير الكون للإنسان

تسخير الكون بكل ما يحويه من موجودات لمصلحة الإنسان، حقيقة أخبر عنها القرآن الكريم في أكثر من آية وسورة، منها قوله تعالى: "وسخر الشمس والقمر" [الرعد:02]، "وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار" [ابراهيم:34]، "وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات" [النحل:12]، "ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة"[لقمان:20]، ...إلخ. وهذا التسخير، إذا كان يدل، من جهة، على مكانة الإنسان الرفيعة ومركزيته في الوجود، فإنه يدل من جهة أخرى، على أن الغرض من ذلك هو تمكين الإنسان من أداء الوظيفة التي أنيطت به وهي خلافة الله في الأرض، وهو ما أشار إليه الفاروقي بقوله: "وسخر الله للإنسان ما في السماوات والأرض، أو بالأحرى جميع المخلوقات، ليستطيع هذا الموجود أن يستفيد منها بإرادته"[2]، ولاشك أن هذه الاستفادة تكون بالعمل الصالح وبإعمار الأرض وفعل الخير، وغير ذلك مما يشتمل عليه لفظ العبادة في قوله تعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"، فالغرض من التسخير إذن، هو تحقيق الغاية من وجود الإنسان وهي عبادة الله، مثلما يؤكد ذلك النجار في قوله: "إن هذا النسق العقائدي في صلة الإنسان بالكون: وحدة ورفعة

[1] – النجار: قيمة الإنسان، ص ص(30 _31).

[2] – الفاروقي: نظرية الإنسان في القرآن الكريم، ص475.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

وتسخيرا ينطوي على عناية إلهية بالإنسان تتمثل في إعداده ليتعامل مع الكون بما يحقق وظيفة الخلافة التي خلق من أجلها"[1]. وإذا كان الله عز وجل قد سخر الكون للإنسان، فإنه، لم يكتف بذلك ، بل أرشده إلى الوسائل التي تمكنه من تحقيق هذه الغاية، ونعني بذلك وسائل العلم المعرفة.

لقد وهب الله الإنسان العلم وزوده بالمعرفة باعتبارهما وسيلة أساسية لتحقيق الغاية من وجوده، وهي عبادة الله، عن طريق أداء وظيفة الاستخلاف في الأرض بما تتضمنه من إعمار للأرض واستثمار للكون وفعل للخيرات، وقد جعل الله هذا العلم سببا في إزالة الشك والحيرة التي اعتورت نفوس الملائكة حول حقيقة الإنسان وقدره، وهو ما جعلهم يسجدون له بأمر الله، اعترافا له بالفضل، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة: "وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون. وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين" [البقرة: 31ـــ 34]، يقول الفاروقي في شرح هذه الآية: "فالله سبحانه وتعالى أمر ملائكته بالسجود لآدم بعدما احتاروا من معرفة آدم الفائقة، وبذلك سجدوا للإنسان، واعترفوا بأفضليته"[2]، وهي إشارة منه إلى أهمية العلم في تحقيق رسالة الاستخلاف، ولعل ما يؤكد هذه الأهمية هو أن أول آية نزلت من القرآن الكريم تضمنت دعوة الإنسان إلى القراءة، وهي قوله تعالى: "إقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. إقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان

[1] – النجار: خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص59.

[2] – الفاروقي: نظرية الإنسان في القرآن الكريم، ص476.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

ما لم يعلم" [العلق:1ـــ5]، تقول عائشة عبد الرحمن(بنت الشاطئ): "وإنما كان وجه الإيثار المبرر للخلافة في الأرض، هو العلم. و به كان الرد على الملائكة فيما عجبت له من استخلاف آدم في الأرض"[1]، فالعلم الذي اختص به الإنسان دليل على أفضليته، وعلى التكريم الذي خصه الله به، وذلك من أجل تأدية الأمانة التي عهد إليه بها. وقد وهب الله الإنسان كل وسائل العلم من حواس وعقل وشعور، ولما كانت هذه الوسائل عرضة للخطأ، ولما كان مجال إدراكها محدود، بحيث لا تستطيع، مثلا، الإحاطة بعالم الغيب، فإن الله عز وجل أنعم على الإنسان بنعمة الوحي الذي أنزله على الأنبياء والرسل الذين أوكل إليهم مهمة هداية الناس إلى سبل الخير و التقوى.

3 ـــ نظرة الإسلام إلى الحياة الإنسانية

إن نظرة الإسلام إلى حياة الإنسان تتسم بالايجابية، فهي تختلف، حسب الفاروقي، عن نظرة الأديان والمذاهب الفلسفية الأخرى إليها، فالإسلام لا يتضمن أية دعوة إلى الرهبنة واعتزال الحياة، والزهد في الدنيا ومتعها المادية والمعنوية، بل الصحيح، فيما يقول الفاروقي: "أن إرضاء الغرائز والميول والعواطف، لا يعتبر أمرا مشروعا فحسب، بل يعتبر واجبا، فهذه المواهب هي جزء من نعم الله على الإنسان، وتعتبر من السنن الإلهية. وأن القرآن يرفض بصراحة الرهبنة التي تكبح جماح هذه المواهب"[2]، ويستدل الفاروقي على موقفه هذا بعديد الآيات منها قوله تعالى: "ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتينا الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها وما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون"[الحديد:27]، ويوافق هذا قوله (ص): "لا

[1] – عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، مقال في الإنسان، ص33.

[2] – الفاروقي: نظرية الإنسان في القرآن الكريم، ص478.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

رهبانية في الإسلام"، فالرهبنة بما فيها من مشقة وعسر وحرمان تتنافى مع مقصد خلق الإنسان في القرآن الكريم، ألا وهو تيسير الحياة له، مصداق ذلك قوله تعالى: "يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر"[البقرة:175]، لأجل ذلك، فإن الإنسان مطالب باستثمار كل مواهبه والانتفاع بها في حدود الرؤية الإسلامية إلى الحياة، ذلك أن الاستمتاع بنعم الله يدفع الإنسان إلى شكر الله عليها، قال تعالى: "وأما بنعمة ربك فحدث"[الضحى:11]، والشكر يدخل في باب العبادة، فالاستمتاع بنعم الله حق إذن، بل واجب، بنص القرآن الكريم، قال تعالى: "وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا"[القصص:77]، بهذا المعنى، فإن كل ما لا يتنافى مع التقوى، فهو حق مباح للإنسان، يقول الفاروقي: "إن الإرضاء المشروع للميول والغرائز، أمر لا يخالف التقوى، كما أن مساعدة الآخرين في إرضاء غرائزهم وطلباتهم أمر واجب، بل هي في الحقيقة جزء من الطاعات والعبادات مثلما يجب على رب العائلة أن يرفه عن أفراد عائلته، ويعمل الحاكم لتحسين أوضاع الناس، أو وظيفة الأخ تجاه أخيه، وإلا فإن أكثر القيم، كالأخلاق، والتقوى، تصبح أمورا خاطئة وكاذبة أو متناقضة، ويفقد مفهوم تزكية النفس والأخوة الإسلامية معناه الحقيقي"[1]، فالفاروقي، كما يتضح من هنا، يقف موقفا إيجابيا من الحياة، وهو موقف استوحاه من القرآن وخالف به كثير من المسلمين الذين فهموا العبادة والتقوى بمعنى حرمان النفس من الاستمتاع بالنعم والمتع الدنيوية، فكانوا في تصورهم للحياة وسلوكهم فيها أقرب إلى التصور البوذي والمسيحي ـــ الذي مر معنا ـــ وهو موقف يتنافى حسب الفاروقي مع نظرة الإسلام إلى الحياة، الذي عبرت عنه العديد من الآيات القرآنية، منها قوله تعالى: "إنا جعلنا ما على الأرض زينة لنبلوهم أيهم أحسن عملا" [الكهف:07]، "والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا

[1]– المصدر نفسه، ص479.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

تعلمون"[النحل:08]، "ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين"[الحجر:16]، "إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب" [الصافات:06]، فكلمة "زينة" في هذه الآيات تمثل رمزا إلى المتعة والجمال، وكل ما من شأنه أن يحقق اليسر للإنسان، وقد أمرنا تعالى أن نستفيد من هذه الزينة بما لا يخالف تقوى الله، مصداقا لقوله تعالى: "يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين" [الأعراف:31]، وقوله أيضا: "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده، والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون."[الأعراف:32][1]. ومن هنا، فإن الخطأ الذي وقعت فيه المذاهب الدينية والفلسفية الغربية، هو أن بعضها دعا إلى الرهبنة حارما الإنسان من الاستمتاع بملذات الدنيا ونعمها، وبعضها الآخر، على العكس من ذلك، أطلق العنان لشهوات الإنسان وغرائزه، فكانت الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه، وجعلت سعادة الإنسان في تحصيل اللذة دون قيد أو ضابط أخلاقي، فلم تحصلها بذلك، وانحدرت بالإنسان إلى مرتبة الحيوان، وهكذا، فإن المتعة الحقيقية هي التي تكون في إطار تقوى الله، لأنها تحفظ للإنسان إنسانيته وكرامته، وتزيد في إيمانه وارتباطه بالله من حيث أنها تدعو إلى شكر الله على النعمة "وأما بنعمة ربك فحدث"، وبذلك يصبح الاستمتاع بالنعمة الإلهية سلوكا تعبديا يثاب صاحبه عليه في الدنيا والآخرة.

ويبدو أن تأكيد الفاروقي على هذه المسألة، إنما كان القصد منه تحقيق مقصد تربوي من مقاصد الشريعة الإسلامية ألا وهو حث الإنسان المسلم على السعي في الأرض والعمل والتفاعل الإيجابي مع الحياة طلبا لليسر، وإعمارا للأرض بما يؤدي إلى تحقيق خلافة الإنسان في الأرض، وفي ذلك يقول: "والإسلام هو الدين الوحيد الذي

[1]– نفسه، ص ص(479_ 480).

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

يحث على البناء والإعمار، ويعتبر ذلك عملا محبذا في الحياة الدنيوية. وهذه الفكرة واضحة في الإسلام، وهو في الحقيقة دين يحث أتباعه على العيش بأفضل وجه، واستعمار الأرض، وهذه الحقيقة قد أثبتها تاريخ الشعوب الإسلامية"[1]. فالفاروقي أراد أن يبين للمسلمين والغربيين على السواء الذين يحملون تصورا خاطئا عن الإسلام ونظرته إلى الحياة، يبين لهم أن الإسلام دين عمل وحضارة، فالعمل في الإسلام عبادة، والعبادة في تصور الفاروقي لا تقتصر على أداء الشعائر والفرائض والسنن الدينية من صوم وصلاة وزكاة وغيرها، بل تشمل كل عمل صالح أريد به ابتغاء مرضاة الله، وفي ذلك يقول: "لقد خلق الله الإنسان لعبادته "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"، والعبادة تتضمن خلافة الله في الأرض "إني جاعل في الأرض خليفة"، والخلافة هي إعمار الأرض "وجعلناكم خلائف في الأرض لننظر كيف تعملون". والإعمار يتضمن بناء الحضارات والمدنيات، وهذه بدورها بكل متطلباتها تتضمن العلم والتكنولوجيا لغاية كبرى "لتكون كلمة الله هي العليا"[2]، وقد استدل على موقفه هذا بما جاء في القرآن الكريم من آيات، وبواقع المسلمين أيام مجدهم وعزهم الذي حققوه حين تمسكوا بدينهم وفهموه فهما صحيحا، فمن الآيات قوله عز وجل: "وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب"[هود:61]، فكلمة "استعمركم فيها" الواردة في الآية تدل على إعمار الأرض، والإعمار يكون بالعمل الصالح، فالقرآن الكريم، كما يقول الفاروقي، لا يقبل بوجود أرض غير عامرة أي الأرض المهملة بل لابد من إعمارها، وذلك بحرث الأرض

[1] – الفاروقي: نظرية الإنسان في القرآن الكريم، ص481.

[2] – الفاروقي: الإسلام والمدنية. قضية العلم، مجلة المسلم المعاصر، ع36، شوال ــ ذو القعدة ــ ذو الحجة/سبتمبر ــ أكتوبر ــ نوفمبر 1403ه، ص ص (11ــ 12).

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

وزرعها، وتشييد المباني والمصانع وشق الطرقات وبناء السدود والمدارس والمصحات وكل ما من شأنه أن يساعد في بناء الإنسان وازدهار الحضارة بما يحقق يسر الإنسان، وتلك هي رسالة الإسلام الحضارية التي هي جزء من رسالته الدينية التعبدية، وقد استوعب المسلمون الأوائل هذه الرسالة وعملوا على تجسيدها، كما يؤكد ذلك الفاروقي في قوله: "وهذه الحقيقة قد أثبتها تاريخ الشعوب الإسلامية، وقد اشتهر المسلمون بمهارتهم ورغبتهم في إعمار المدن، كما اشتهروا في البستنة والزراعة والصناعة ورفع المستوى الصحي، والثقافي، واشتهروا أيضا بنشر العلم. إضافة إلى ذلك فإن المسلمين كانوا متفوقين على غيرهم في تزيين كل شيء كالأواني والفرش والبيوت"[1]، وهذا التفوق الحضاري قد ساهم في تحقيق إنسانية الإنسان المسلم بما لم يتحقق لأي إنسان في أية حضارة من الحضارات الأخرى التي طغى عليها الجانب الروحي على حساب الجانب المادي(كالحضارة البوذية)، أو طغى عليها الجانب المادي على حساب الجانب الروحي (كالحضارة الغربية المعاصرة)، وذلك لأن الحضارة الإسلامية بنيت على تصور صحيح للإنسان مستوحى من القرآن الكريم.

الخاتمـــة:

في ختام هذا البحث، نخلص إلى القول بأن الفاروقي قد حاول تقديم نظرية حول الإنسان، صحيح أنها مستوحاة من القرآن الكريم، ولكن نعتقد أن ذلك لا يبرر له وصفها بنظرية الإنسان في القرآن، إذ يمكن لغيره من المفكرين صياغة نظريات أخرى من القرآن الكريم، فالقرآن حمال أوجه، فمثلا، تفسيره لمعنى الأمانة في قوله تعالى: "ولقد عرضنا الأمانة على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها..." على أن المراد بالأمانة التقوى، هو تفسير لا يحظى بإجماع المفسرين الذين ذهبوا في ذلك مذاهب شتى.

[1]– الفاروقي: نظرية الإنسان في القرآن، مصدر سابق، ص478.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 233–285 تاريخ النشر:05–08–2020

ويبقى المهم بالنسبة للفكر الإسلامي المعاصر التعمق أكثر في هذه النظرية وإثرائها من خلال العودة إلى القرآن الكريم، لأن البحث في القرآن لا ينتهي، وكذا الاستثمار في المناهج والمعارف الغربية في مجال علوم وفلسفات الإنسان، ولكن الأهم من ذلك، هو ضرورة إنزال هذه النظرية على الواقع، أعني المزاوجة بين النظر والعمل، وهي خاصية من خصائص العقلانية الإسلامية الأصيلة، بما من شأنه أن يساهم في تحقيق التنمية الحقيقية، التي هي تنمية الإنسان في كافة أبعاده، من أجل أداء المهمة التي كلف بها وهي خلافة الله في الأرض، من أجل إعمار الأرض، الذي هو من صميم عبادة الله، وهي (العبادة) الغاية من خلق الإنسان، حتى ينعم بالسعادة في الدنيا والآخرة. بعبارة أخرى، نحن بحاجة إلى تأسيس علوم إنسانية إسلامية تنطلق في فهمها وتفسيرها للظاهرة الإنسانية من المرجعية الإسلامية ممثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية، دون أن يمنعها ذلك من الرجوع إلى العقل بالنظر إلى العلاقة التكاملية بين العقل والوحي، "فالعقل شرع من الداخل، والشرع عقل من الخارج"، كما قال بحق الإمام أبي حامد الغزالي، حتى إذا ما استطاعت هذه العلوم فهم حقيقة الإنسان في مختلف أبعاده، استطاعت، من ثمة، الارتقاء بالحضارة الإسلامية، و لم لا الإنسانية، بالنظر إلى محورية الإنسان في معادلة بناء الحضارة..